صورة الحضارة الإسلامية من خلال كتاب "حضارة العرب" للمستشرق: غوستاف لوبون

د. عبد المعبود إسماعيل إبراهيم

قسم الشريعة –كلية الشريعة والقانون – جامعة جازان – المملكة العربية السعودية

المُلخَص

هذا البحث يتحدث عن صورة حضارتنا الإسلامية من خلال كتاب حضارة العرب للمستشرق الفرنسي الطبيب والمؤرخ وعالم الاجتماع المعروف غوستاف لوبون، الذي أنصف المسلمين وحضارتهم وأثنى عليهم الثناء الحسن الجميل في الغالب الأعم من كتابه موضوع البحث.

وقد اشتمل هذا البحث على: مقدمة وتمهيد وأربعة مباحث وخاتمة على النحو التالي:

ففي المقدمة تحدثت عن: أهمية الموضوع وسبب اختياره ومنهج البحث وخطته.

وفي التمهيد، تناولت الأمور التالية:

أولاً: التعريف بالحضارة الإسلامية. ثانياً: التعريف بالاستشراق. ثالثاً: التعريف بالمؤلف وبالكتاب.

المبحث الأول: أسس الحضارة الإسلامية وخصائصها.

المبحث الثاني: أثر الحضارة الاسلامية في الحضارة الغربية.

المبحث الثالث: جهود غوستاف لوبون في الدفاع عن الإسلام.

المبحث الرابع: دحض شبهات مثارة حول الإسلام في كتاب حضارة العرب.

ثم الخاتمة وبها أهم النتائج والتوصيات.

الكلمات المفتاحية: الإسلام ـ رسول الله مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم ـ العرب ـ حضارة ـ الاستشراق ـ غوستاف لوبون.

مُقَدِمَةٌ :

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا مُحَمَّداً عبد الله ورسوله وصفيه من خلقه وحبيبه، أرسله ربه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيدا... وبعـد:

فإن العرب أمة عظيمة ارتفع شأنها بالإسلام، وذاع صيتها وشهرتها بالانتساب لهذا الدين العظيم، وصارت لهم مكانة عالية ومنزلة

سامية في العالمين، بعد أن كانوا قبل الإسلام في جاهلية وفي ضلال مبين(١).

إن العرب أصبحوا بفضل اعتناقهم للإسلام، في أقل من قرن من الزمان تقريباً أمة ذات ثقافة وعلم ومدنية؛ وبالتالي صنعوا حضارة وقادوا العالم أجمع إلى مراقي الخير والفلاح في شتى المجالات ومختلف الميادين لمدة ثلاثة عشر قرن من الزمان ، ويرجع ذلك كله إلى ما أحدثه فيهم الإسلام من تغيير شامل وكامل، يقول غوستاف لوبون: "قد كانت بلاد العرب قبل مُحَمَّد مؤلفةً من إمارات مستقلة وقبائل متقاتلةٍ دائمًا، فلما ظهر مُحَمَّد ومضى على ظهوره قرنٌ واحد كانت دولة العرب ممتدة من الهند إلى إسبانية، وكانت الحضارة تسطع بنورها الوهاج في جميع المُدُن التي خَفَقَت راية النبي فوقها"(٢)، ولقد عانت حضارتنا الإسلامية عبر تاريخها الطويل من ويلات الظلم والقسوة والتهميش والتجاهل من الكتاب الغربيين (المستشرقين والمنصرين)، فقد حرص كثير منهم على تشويه صورة الإسلام وحضارته وإنكار فضل الحضارة الإسلامية على الحضارة الغربية قديماً وحديثاً؛ ومن ذلك نسبة علوم المسلمين ومكتشفاتهم لأنفسهم(٣)، كما تعمدوا الإساءة إلى الإسلام وحضارته؛ بهدف النيل منه والطعن فيه، لكي يحولوا بين شعوبهم وبين التعرف على الإسلام وتاريخه المشرق وحضارته الغناء، لكن هناك نفراً من الكتاب الغربيين الذين أنصفوا الإسلام وحضارته؛ منهم المستشرق الفرنسي الدكتور: "غوستاف لوبون"، صاحب المؤلفات الكثيرة في علم الاجتماع وغيره، ومنها كتابه: "حضارة العرب" محل البحث والدراسة، والكتاب في مجمله مدح وثناء؛ بل وإطراء وذكر لمحاسن الإسلام وحضارته وتاريخه وقيمه ومبادئه، والحق يقال: إن روح الإنصاف كانت تسري بين معظم صفحات هذا الكتاب، ومن ذلك قوله: "وكلما أمعنا النظر في درس حضارة العرب وكتبهم العلمية واختراعاتهم وفنونهم ظهرت لنا حقائق جديدة وآفاق واسعة، ولسرعان ما رأينا أن العرب أصحاب الفضل في معرفة القرون الوسطى لعلوم الأقدمين، وأن جامعات الغرب لم تعرف لها مدة خمسة أو ستة قرون، مورداً علمياً سوى مؤلفاتهم وأنهم هم الذين مدنوا أوربة؛ مادةً وعقلاً وأخلاقاً، وأن التاريخ لم يعرف أمةً أنتجت ما أنتجوه في وقت قصير، وأنه لم يَفُقْهم قوم في الإبداع الفني، وتأثير العرب عظيم في الغرب، وهو في الشرق أشد وأقوى"(٤)، وعن غوستاف لوبون وغيره من المستشرقين المنصفين في الجملة، الذين كانت بحوثهم من أجل العلم والوصول للحقيقة، يقول المفكر الجزائري مالك بن نبي: "ولا شك أن المستشرق سيديُّو والعلامة غوستاف لوبون يتسمان في انتاجهما بميزة العلم الخالص والاجتهاد المخلص للحقيقة العلمية"(٥). ويمكن القول بأن إنصاف المستشرق غوستاف لوبون للإسلام وحضارته إجمالاً؛ قد بلغ أقصى درجاته المتوقعة من كاتب غربي غير مسلم يكتب عن الإسلام وحضارته، غير أن فهم غوستاف لوبون كان غائماً ويعتريه الغموض فيما يخص مسألة اعترافه وإقراره بالنبوة والوحي، مما أوقعه في التناقضات مع نفسه أحياناً بسبب عدم وضوح الرؤية عنده في هذا الموضوع، وحسب الرجل أنه كان متجرداً وموضوعياً فيما كتب عن الحضارة الإسلامية منصفاً لها في زمن تكالب عليها غالبية المستشرقين، أما غوستاف لوبون فقد كان يكتب بذهن خال تماماً عن إصدار الأحكام مسبقاً، ولقد تحرر الرجل من القيود والعقد التي كان يكتب معظم المستشرقين عن الإسلام وحضارته وهم قد أصدروا أحكامهم مسبقاً، والحق يقال: إن الرجل اعترف بفضل الحضارة الإسلامية على الحضارة الغربية ومحاسنها وسجل ذلك كثيراً في ثنايا كتابه بقلمه الشجاع، وسوف يتضح هذا الأمر في ثنايا البحث.

أهمية الموضوع:

وتبرز أهمية البحث وأسباب اختياره من خلال عدة أمور منها:

١ - إبراز جهود المنصفين من الكتاب الغربيين من أمثال غوستاف لوبون في الدفاع عن الإسلام وحضارته.

٢ - تسليط الضوء على الذين أنصفوا الإسلام وحضارته من أمثال غوستاف لوبون.

٣- بيان فضل الحضارة الإسلامية على الحضارة الغربية من خلال شهادة المستشرق غوستاف لوبون.

٤ - بيان المآخذ والسلبيات التي تورط فيها غوستاف لوبون بسبب موروثاته الفكرية وبيئته التي عاش فيها.

٥ - بيان ظلم كثير من الكتاب الغربيين الذين تنكروا للإسلام وحضارته، وأنكروا فضلها على حضارتهم.

٦ - بيان تناقض غوستاف لوبون في قضية النبوة والوحي.

إشكالية البحث: ويجيب البحث على عدة تساؤلات منها:

١ - لماذا كل هذا الحقد على الإسلام وحضارته من الكتاب الغربيين.

٢ - لماذا استنفر غوستاف لوبون قلمه في الدفاع عن الإسلام وحضارته في زمن تكالب عليه جمهور الكتاب الغربيين؛ منتقصين ومشوهين حضارة الإسلام وتاريخه المشرق.

(١) ينظر: ابن هشام، أبو عبد الملك، (١٤١٩هـ)، "السيرة النبوية"، تحقيق: جمال ثابت وآخرين، ط٢، دار الحديث، القاهرة، ٢٧٧/١ .

(٢) ينظر: لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ترجمة: عادل زعيتر، ط١، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ص ١٣٢.

(٣) ينظر: ابن نبي، مالك بن الحاج عمر بن الخضر (١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م)، "إنتاجُ المستشرقينْ وأثره في الفِكر الإسلاميّ الحَديث"، ط١، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ص٨: ١٠.

(٤) غوستاف لوبون، (١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م)، "حضارة العرب"، ترجمة عادل زعيتر، ط٦، دار العالم العربي، القاهرة، ص٢٦.

(٥) ابن نبي، مالك "إنتاجُ المستشرقينْ وأثره في الفِكر الإسلاميّ الحَديث"، ص٩، وينظر: لوبون، غوستاف، حضارة العرب"، مقدمة المترجم ص٥:٢٤.

٣ - هل للحضارة الإسلامية فضل على الحضارة الغربية وتمدين أوربا.
٤ - هل بلغ غوستاف لوبون الغاية في الإنصاف.
٥ - ما هي أسباب انتشار الإسلام وحضارته.
ويهدف البحث إلى إبراز جهود المستشرقين المنصفين في الجملة؛ كالمستشرق الفرنسي: "غوستاف لوبون" الذي بلغ الغاية في الانصاف والتجرد من اجل بيان الحقيقة و الدفاع عن الإسلام وحضارته وبيان محاسنه، وهو رجل غربي غير مسلم، والفضل ما شهدث به الأعداء.

منهج البحث:
وقد استخدمت في بحثي هذا المناهج التالية:
١- المنهج الوصفي[(١)].
٢- المنهج النقدي[(٢)].
٣- المنهج التحليلي[(٣)].
٤- المنهج التاريخي[(٤)].

- **خطة البحث:**

قد اشتمل هذا البحث على: مقدمة وتمهيد وأربعة مباحث وخاتمة على النحو التالي:
ففي المقدمة تحدثت عن: أهمية الموضوع وسبب اختياره ومنهج البحث وخطته.
وفي التمهيد، تناولت الأمور التالية:
أولاً: التعريف بالحضارة الإسلامية. ثانياً: التعريف بالاستشراق. ثالثاً: التعريف بالمؤلف وبالكتاب.
المبحث الأول: أسس الحضارة الإسلامية وخصائصها.
المبحث الثاني: أثر الحضارة الاسلامية في الحضارة الغربية.
المبحث الثالث: جهود غوستاف لوبون في الدفاع عن الإسلام.
المبحث الرابع: دحض شبهات مثارة حول الإسلام في كتاب حضارة العرب.
ثم الخاتمة وبها أهم النتائج والتوصيات.

التمهيد، ويشتمل على أمور منها:

أولاً: التعريف بالحضارة الإسلامية:

١ ـ الحضارة في اللغة: "الإقامة في الحَضَرِ، وهي المُدُنُ والقُرَى والرِّيفُ"[(٥)]. والحضارة: "ضد البداوة وَهِيَ مرحلة سامية من مراحل التطور الإنساني وَمظَاهر الرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي فِي الْحَضَر"[(٦)].

٢ ـ الحضارة في الاصطلاح: هناك عدة اتجاهات في تعريف الحضارة اصطلاحاً منها، ما ذهب إليه أصحاب الاتجاه العام الشامل[(٧)]: الذي يرى أن الحضارة هي: جهد البشر المادي والمعنوي والمعنوي في شتى الميادين ومختلف المجالات، وسنكتفي بذكر بعض التعريفات لأصحاب هذا الاتجاه، ومن ذلك:
أ ـ الحضارة هي: "الحصيلة الشاملة للمدنية، والثقافة، والفكر، ومجموع الحياة، في أنماطها المادية والمعنوية"[(٨)].
ب ـ الحضارة هي: "نظام اجتماعي يعين الإنسان على زيادة إنتاجه الثقافي بعناصر أربعة، هي: الموارد الاقتصادية، والعقائد الخلقية، والنظم السياسية، ومتابعة العلوم والفنون"[(٩)].
ج ـ الحضارة هي: "ذلك الكيان المعقد الذي يضم المعرفة، والمعتقدات، والفنون، والآداب، والقوانين، والعادات، وجميع القدرات والتقاليد الأخرى، التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً في المجتمع"[(١٠)].
د ـ الحضارة هي: "كل ما تنشئه يد الإنسان، في كل ما يتصل بمختلف جوانب نشاطه ونواحيه، عقلاً، وخُلُقاً، مادةً، وروحاً،

(١) المنهج الوصفي: هو المنهج الذي يقوم: "بوصف الظاهرة التي يريد الباحث دراستها وجمع المعلومات بدقة؛ ويعتمد على دراسة الواقع أو الظاهرة كما توجد في الواقع دون أي تدخل من الباحث". بوحوش عمار، (١٤١٠ هـ ـ ١٩٨٩م)، "مناهج البحث العلمي أسس وأساليب ـ ط١، مكتبة المنار بالزرقاء - الأردن ص ٩٦ ـ

(٢) المنهج النقدي: هو المنهج الذي يقوم على :"تحليل النصوص ونقدها نقدا موضوعياً على أساس التحقق من صحة تلك النصوص، وتفسيرها بكل نزاهة وموضوعية". بدوى، عبد الرحمن، (١٩٩٧م)، "مناهج البحث العلمي"، وكالة المطبوعات بالكويت، ص ١٨٣.

(٣) المنهج التحليلي: هو "منهج عام يراد به تقسيم الكل إلى أجزائه ورد الشيء إلى عناصره المكونة له"، المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، ص٤٠.

(٤) المنهج التاريخي: وهو المنهج الذي يقوم: "على جمع المعلومات والحقائق الماضية وفحصها ونقدها وتحليلها والتأكد من صحتها وعرضها واستخلاص النتائج منها". بوحوش عمار، "مناهج البحث العلمي أسس وأساليب" ص ٩٦ ـ

(٥) ينظر: ابن منظور، مُحَمَّد بن مكرم، (بدون)، "لسان العرب"، ط١، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦/٤، مادة (حضر).

(٦) ينظر: مصطفى، إبراهيم، وآخرون،(٢٠٠٤م)، "المعجم الوسيط"، ط١، دار دار الدعوة، القاهرة، ١٨١/١، مادة (حضر).

(٧) الواعي، توفيق،(١٤٠٨هـ)، "الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية"، ط١، دار الوفاء بالمنصورة ، مصر، ص ٢٥.

(٨) السايح، أحمد عبد الرحيم، (الثالث، ذو الحجة ١٣٩٧هـ ، نوفمبر تشرين ثاني ١٩٧٧م)، "الحضارة الإسلامية"، طبع ونشر الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة، السنة العاشرة، العدد الثالث، ص٧٠، وينظر: سعيد، هام عبد الرحيم، وآخرون، (٢٠٠٥م)، "الوجيز في الثقافة الإسلامية"، ط٢، دار الفكر، بيروت، لبنان،ص٣٠، وما بعدها.

(٩) وول، ديورانت،(١٩٦٥م)، "نشأة الحضارة"، ترجمة: د. زكي نجيب محمود، ط١، طبعة لجنة التأليف والنشر بالقاهرة، ٩/١.

(١٠) الشرقاوي، عفت (د.ت)،"فلسفة الحضارة"، ط١، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ص١١.

ديناً، ودنيا"[١] ... "ومفهوم الحضارة عند أصحاب هذا الاتجاه، مفهوم عام: يتناول كل قدرات الإنسان، العقلية والنفسية والعملية، المتجهة به نحو الرقي والتقدم في شتى نواحي الحياة"[٢]، المادية والمعنوية، وفي هذا يقول الدكتور عمر بهاء الدين الأميري" فالحضارة حسب تعريفي لشكلها الأمثل، هي: تحقيق غرض الوجود البشري في إعمار الأرض وفق نواميس الله تعالى بأسمى شكل تتجلى فيه إنسانية الإنسان الخليفة"[٣].

٣ ـ تعريف الحضارة الإسلامية: هي: الجهد الذي يقدمه المجتمع المسلم لخدمة المجتمع البشري في جميع نواحي حياته، المعنوية والمادية[٤].

٤ ـ مفهوم الحضارة عند غوستاف لوبون: عَرَّفَ العلامة غوستاف لوبون الحضارة بأنها: "نضوج الآراء والمبادئ والمعتقدات وتغير مشاعر الإنسان إلى الأفضل"[٥]، وتشتمل على "النظم والمعتقدات والمعتقدات والعلوم والآداب والفنون والصناعات وتاريخ ذلك كله"[٦].

ثانياً: التعريف بالاستشراق: السين والتاء إذا زيدتا في فعل دلتا على الطلب؛ ولذا فالاستشراق هو: "طلب علوم الشرق وآدابه، والمستشرقون هم قوم من غير الشرقيين، أو هم الغربيون الذين تخصصوا في دراسة علوم الشرق من كافة جوانبه؛ علومه وتاريخه وأديانه ولغاته وآدابه وشعوبه، لأهداف مختلفة، ودوافع شتى"[٧].

والمستشرقون هم: الكتاب الغربيون الذين يكتبون عن الإسلام وحضارته وتاريخه وقيمه وآدابه وعلومه وفنونه وشعوبه، ومنهم المادحون للإسلام وحضارته، كالعلامة "غوستاف لوبون"، وبالرغم من ذلك فقد وقع غوستاف لوبون في هفوات وهو يكتب عن حضارة الإسلام من حيث لا يشعر، فكتابه في الجملة إنصاف للمسلمين وحضارتهم ويعتبر شهادة في حق الإسلام وحضارته ينبغي أن يسلط الضوء عليها وذكرها والإشادة بها، يقول المفكر الجزائري مالك بن نبي: " إن أوروبا اكتشفت الفكر الإسلامي في مرحلتين من تاريخها، فكانت في مرحلة القرون الوسطى، قبل وبعد توماس الأكويني، تريد اكتشاف هذا الفكر وترجمته من أجل إثراء ثقافتها، بالطريقة التي أتاحت لها فعلاً تلك الخطوات الموفقة، التي هدتها إلى حركة النهضة منذ أواخر القرن الخامس عشر، وفي المرحلة العصرية والاستعمارية، فإنها تكتشف الفكر الإسلامي مرة أخرى، لا من أجل تعديل ثقافي بل من أجل تعديل سياسي... وربما حملت هذه المجهودات العلمية، أصحابها على الاعتراف بفضل تلك الشعوب وبمساهمتها في تكوين الرصيد الحضاري الإنساني، ولا شك أن المستشرق سيديُّو والعلامة غوستاف لوبون، يتسمان في إنتاجهما بميزة العلم الخالص والاجتهاد المخلص للحقيقة العلمية"[٨].

ثالثاً: التعريف بالمؤلف وبالكتاب:

١ ـ التعريف بالمؤلف[٩]: هو غوستاف لوبون ولد في (٧ مايو ١٨٤١ـ وتوفي في ١٣ ديسمبر١٩٣١م)، طبيب ومؤرخ فرنسي، عمل في أوروبا وآسيا وشمال أفريقيا، كتب في علم الآثار وعلم الانثروبولوجيا، وعُني بالحضارة الشرقية، ومن آثاره: «حضارة العرب»، و«حضارات الهند وباريس» (١٨٨٤م)، و«الحضارة المصرية»، و«حضارة العرب في الأندلس»، و «سر تقدم الأمم»، و«روح الاجتماع» الذي كان انجازه الأول، ولقد عُرف العلامة لوبون بأنه أحد أشهر فلاسفة الغرب الذين أنصفوا الأمة العربية والحضارة الإسلامية، فلم يَسِر على نهج مؤرخي أوروبا الذين صار من تقاليدهم إنكار فضل الإسلام على العالم الغربي، وتمدين حضارته لهم، وقد راع هذا الجحود العلامة الفرنسي الكبير غوستان لوبون الذي ارتحل في العالم الإسلامي وله فيه مباحث اجتماعية، أقرّ بأن المسلمين هم مَن مدَّنوا أوروبة مادة وعقلاً وأخلاقاً، فرأى أن يبعث عصر العرب الذهبي من مرقده، وأن يُبديه للعالم في صورته الحقيقية؛ فألف عام ١٨٨٤م كتاب «حضارة العرب» جامعًا لعناصر الحضارة العربية وتأثيرها في العالم، وبحث في أسباب عظمتها وانحطاطها وقدمها تقديم المدين بالفضل للدائن. توفي في ولاية مارنيه، بفرنسا سنة: (١٩٣١م).

٢ ـ محتويات كتاب (حضارة العرب)[١٠]: لقد اشتمل كتاب حضارة العرب، للمستشرق الفرنسي الطبيب والرحالة المشهور غوستاف لوبون على مقدمة وستة أبواب على النحو التالي:

---

(١) حسين، محمد محمد، (د.ت)،"الإسلام والحضارة الغربية"، ط١، المكتب الإسلامي، بيروت، ص٤.

(٢) الواعي، توفيق،(١٤٠٨هـ)، "الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية"، ص٢٧.

(٣) الأميري، عمر بهاء الدين، (١٩٨٣م)، "الإسلام وأزمة الحضارة الإنسانية المعاصرة في ضوء الفقه الحضاري"،ط١، مؤسسة الشرق للنشر والترجمة ـ قطر، ص١٤.

(٤) سعيد، هيام عبد الرحيم، وآخرون، (٢٠٠٥م)، "الوجيز في الثقافة الإسلامية"، ص٣٠، وما بعدها، وينظر: الأميري، عمر بهاء الدين، (١٩٨٣م)، "الإسلام وأزمة الحضارة الإنسانية المعاصرة في ضوء الفقه الحضاري"، ص١٤.

(٥) لوبون، غوستاف،(د.ت)، "روح الجماعة"، ترجمة: عادل زعيتر، ط١، دار المعرفة، القاهرة، ص ١٧.

(٦) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص ١٢٨.

(٧) محمد، إسماعيل علي، (١٤١٩هـ ـ ٢٠٠٠م)، "الاستشراق بين الحقيقة والتضليل"، ط٣، مؤسسة شروق للنشر والتوزيع، القاهرة، ص١١، ويراجع: زقزوق، محمود (١٤٠٤هـ)، "الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري"، محمود زقزوق، ط١، كتاب الأمة (٥)، المحاكم الشرعية والشئون الدينية - قطر، ص: ١٨، ٢٠.

(٨) ينظر: ابن نبي، مالك "إنتاجُ المستشرقينَ وأثره في الفِكر الإسلاميّ الحَديث"، الحَديث"، ص٨ : ١٠ ، بتصرف.

(٩) ينظر: لوبون، غوستاف (١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م)، "حضارة العرب"، ط٦، دار العالم العربي، القاهرة، مقدمة المترجم، ص٥:٢٦ موسوعة ويكيبديا الحرة على الشبكة الدولية للمعلومات (الإنترنت) https://ar.wikipedia.org/wiki

(١٠) يقصد بـ (حضارة العرب) هنا: حضارة الإسلام، فالكتاب الغربيون عندما يكتبون عن الإسلام تأتي عناوينهم منسوبة "للعرب"، ولكن الحق أن كلمة: "العرب" عندهم مرادفة لكلمة الإسلام أو المسلمين، وعليه فالمقصود بحضارة العرب؛ أي:

- **الباب الأول:** البيئة والعرق، ويشتمل على: جزيرة العرب، العرب، العرب قبل ظهور مُحَمَّد.

- **الباب الثاني:** مصادر قوة العرب، ويشتمل على: مُحَمَّد: نشوء الدولة العربية، القرآن، فتوح العرب.

- **الباب الثالث:** دولة العرب، ويشتمل على: العرب في سورية، العرب في بغداد، العرب في بلاد فارس والهند، العرب في مصر، العرب في إفريقية الشمالية، العرب في إسبانية، العرب في صقلية، اصطراع النصرانية والإسلام.

- **الباب الرابع:** طبائع العرب، ويشتمل على: أهل البدو وأهل الأرياف، عرب المدن: طبائعهم وعاداتهم، نُظم العرب السياسية والاجتماعية، المرأة في الشرق، الدين والأخلاق.

- **الباب الخامس:** حضارة العرب، ويشتمل على: مصادر معارف العرب: تعليمهم ومناهجهم ـ اللغة والفلسفة والآداب والتاريخ، الرياضيات وعلم الفلك، العلوم الجغرافية، الفيزياء وتطبيقاتها، العلوم الطبيعية والطبية، الفنون العربية، فن العمارة، تجارة العرب:(صلاتهم بمختلف الأمم)، تمدين العرب لأوربة: (تأثيرهم في الشرق والغرب).

- **الباب السادس:** انحطاط حضارة العرب، ويشتمل على: ورثة العرب، أسباب عظمة العرب وانحطاطهم.

٣ ـ سبب تأليف كتاب حضارة العرب: لقد عزم المؤلف على الكتابة عن تاريخ الحضارات جميعها وقد بدأ بحضارة العرب، يقول:" وبالعرب بدأت وسبب ذلك: أن حضارتهم من الحضارات التي اطلعت عليها في رحلاتي الكثيرة أحسن مما اطلعت على غيرها من الحضارات التي كمل دورها، وتجلى فيها مختلف العوامل التي أوضحنا سرها في ذلك الكتاب، وهي: من الحضارات التي نرى أن الاطلاع على تاريخها مفيد الغاية وهو أقل ما عرفه الناس عنها، وتسيطر الحضارة العربية، منذ اثني عشر قرناً، على الأقطار الممتدة من شواطئ المحيط الأطلنطي إلى المحيط الهندي، ومن شواطئ البحر المتوسط إلى رمال إفريقية الداخلية، وكان سكان هذه البلدان المترامية الأطراف تابعين لدولة واحدة، ويدينون بديانة واحدة، ولهم لغة واحدة ونظم واحدة، وفنون واحدة. ولم يقم عالم بوضع كتاب جامع لتأثير حضارة العرب في الأمم التي سيطرت عليها شامل لعجائبها[١].

فوضع العلامة غوستاف لوبون هذا الكتاب، من باب رد الجميل للعرب الذين دانت لهم أوربة بالفضل في شتى المجالات ومختلف الميادين لمدة تزيد على ستمائة سنة تقريباً.

٤ ـ منهج غوستاف لوبون في كتابه: "حضارة العرب":

أ ـ اتباع المنهج العلمي[٢]: إن مما تميز به غوستاف لوبون غالباً في كتابه حضارة العرب اتباعه قواعد المنهج العلمي، فلقد" سلك العلامة لوبون فيه طريقاً لم يسبقه إليها أحد، فجاء كتابه جامعاً لعناصر هذه الحضارة وتأثيرها في العالم، شاملاً لعجائبها مفصلاً لعواملها، باحثاً في قيام دولة العرب، وفي أسباب عظمتهم وانحطاطهم، مبتعداً عن أوهام الأوربيين التقليدية في العرب وفي الإسلام"[٣].

ب ـ خوض غمار البحث بذهن خال إجمالاً من الموروثات والأحكام المسبقة التي لم ينج منها معظم الكتاب غير المسلمين؛ حيث إنهم يزعمون أنهم أصحاب منهج علمي، وأصحاب نزاهة وموضوعية وأمانة في البحث، غير أن بحوثهم وكتاباتهم تخلو من ذلك كله إذا كان موضوع البحث متعلقاً بالإسلام، والحقُّ أنَّ العلامة غوستاف لوبون قد تحرر من أي موروثات قد تؤثر على فكره فيما يتعلق بالإسلام غالباً، فقد خاض غمار البحث غالباً بذهن خال وموضوعية وأمانة ونزاهة منقطعة النظير إذا ما قورنت أعماله الفكرية ومنها كتابه حضارة العرب بكتابات غيره من الغربيين، يقول: "وسيجد القارئ في هذا الكتاب تطبيقاً للقواعد المذكورة التي ابتعدنا بها عن أكثر أحكامنا التقليدية الموروثة في الشرقيين، ولا سيما في دين مُحَمَّد وتعدد الزوجات والرق والحروب الصليبية، والنظم والفنون وتأثير العرب في أوربة، وما إلى ذلك"[٤].

ج ـ اعتماد الآثار الماثلة باستخدام الصور الفوتوغرافية لتلك الآثار: يقول:" إن الآثار الباقية من حضارة العرب كثيرة وهي تكفي لإيضاح أقسامها الجوهرية بسهولة، وقد استعنَّا بأكثرها، أي بما خلفه العرب من العلوم والآداب والفنون والنظم والمعتقدات، وأكثر ما رجعنا إليه في هذا الكتاب هو ما نسميه الآثار الماثلة التي تستوقف النظر بأشكالها الظاهرة، ففيها يتجلى نفوذ العروق وتأثير البيئة، وبها يمكن الوقوف على أحوال الأمم الغابرة. ولا نرى غير طريقة واحدة لوصف تلك الآثار، وهي: عرض صورها، وما تلقيه صور الآثار التاريخية في الرُّوع من المعاني الصادقة قد دفعنا إلى الإكثار منها في هذا الكتاب. والقارئ الذي يقتصر على تصفح صور هذا الكتاب يطلع على حضارة العرب وتحولاتها في مختلف الأقطار أكثر مما يطلع عليه من الكتب الكثيرة.

حضارة الإسلام أو حضارة المسلمين؛ لأن الذي رفع شأن العرب وأعلى منزلتهم وجعلهم أصحاب حضارة هو الإسلام.

(١) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص ٢٩، وما بعدها باختصار.

(٢) وصف المفكر الجزائري المستشرق غوستاف لوبون بأن بحوثه تتسم " بميزة العلم الخالص والاجتهاد المخلص للحقيقة العلمية". ابن نبي، مالك "إنتاجُ المستشرقينْ وأثرُه في الفِكر الإسلاميّ الحَديث"، ص٩.

(٣) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص ١١، وما بعدها، (مقدمة المترجم).

(٤) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص ٢٦.

ولقد أصاب مَنْ قال: إن صورةً متقنةً خير من مائة صفحة في الوصف، ولا نكون مبالغين إذا قلنا: إنها خير من مائة مجلد. وقد أوصت طرق العلم الحديثة بأن يُستعان في الرحلات بالفوتوغرافية، وهذا الكتاب هو: أول الكتب انتفاعاً بالفوتوغرافية، وفيه يرى القارئ مقدار النتائج المهمة التي توصلنا إليها بفضل الفوتوغرافية، وكل صورة اشتمل عليها وثيقة صادقة قوية لا يتطرق إليها الوهن"[١].

د ـ اتباع المنهج الوصفي التحليلي: لقد "استعان لوبون بطريقة التحليل العلمي على وجه الخصوص، فأوضح في هذا الكتاب الصلة بين الحاضر والماضي، ووصف فيه عرق العرب وبيئاتهم، ودرس فيه أخلاقهم وعاداتهم وطبائعهم ونظمهم ومعتقداتهم وعلومهم وآدابهم وفنونهم وصناعتهم وتأثيرهم في المشرق والمغرب، وأسباب عظمتهم وانحطاطهم"[٢].

هـ ـ الاعتماد على المصادر الإسلامية: اعتمد غوستاف لوبون كثيراً في كتابه حضارة العرب على المصادر الإسلامية، وإن من يطالع كتابه يجد ذلك مبثوثاً بكثرة في ثنايا الكتاب، وكذلك في هوامشه ومصادره[٣].

ومن الأمثلة على ذلك كثرة رجوعه لآيات القرآن الكريم واستشهاداته بها في مسائل العقيدة المختلفة[٤].

و ـ الاعتماد على المنهج النقدي: حيث إن غوستاف لوبون قام بجهود مشكورة في الدفاع عن بعض الشبهات التي أثارها المستشرقون والمنصِّرُون حول الإسلام، وسيأتي مزيد بيان في المبحث الثالث من هذا البحث إن شاء الله.

ز ـ أثرت كتابات بعض الغربيين سلباً فيما كتبه غوستاف لوبون أحياناً: فنجد أنه قد تأثر بشبهات بعض المستشرقين والمنصرين ومن سار في فلكهم، وذلك في بعض الشبهات وسوف يأتي مزيد بيان لذلك في المبحث الرابع من هذا البحث إن شاء الله تعالى.

ح ـ اعتماده على الروايات الضعيفة والشاذة[٥]، وأبرز مثال على ذلك ما ذكره حول زواج النبي ﷺ بالسيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها، وقد كانت متزوجة من زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ، قبل زواجها من رسول الله ﷺ.

قال الإمام الطاهر بن عاشور ـ رحمه الله ـ حول هذا الأمر: " واعلم أن المأثور الصحيح في هذه الحادثة: أن زيد بن حارثة بقيت عنده زينب سنين فلم تلد له، فكان إذا جرى بينه وبينها ما يجري بين الزوجين تارة من خلاف أدلت عليه بسؤددها وغضت منه بولايته فلما تكرر ذلك عزم على أن يطلقها وجاء يعلم رسول الله ﷺ بعزمه على ذلك لأنه تزوجها من عنده"[٦].

٥ ـ مآخذ وسلبيات على الكتاب: بالرغم من ان غوستاف لوبون له كثير من الإيجابيات في كتابه: "حضارة العرب" غير أنه لم يخل كتابه من بعض السلبيات والمآخذ التي أصابت كتابه في مقتل، والتي خسر بسببها الكتاب وصاحبه كثيراً بالرغم من شهرته وذيوع صيته وما كان ينبغي له أن يتورط في مثل تلك الأمور ويقع في حبائل الشبهات المثارة حول الإسلام وترديدها. "إننا معشر المسلمين لا نطالب المستشرقين والمبشرين أن يعتقدوا ما نؤمن به نحن المسلمين وإنما نطالبهم فقط أن يقولوا لشعوبهم: إن المسلمين يعتقدون أن مُحَمَّداً ﷺ نبي ورسول من قِبَل الله سبحانه وتعالى وأنه خاتم النبيين. وأن القرآن الكريم أنزل من عند الله تعالى على نبيه ورسوله مُحَمَّد ﷺ. ثم ليعتقدوا بعد ذلك ما يشاءون ولكن عليهم أن ينقلوا وجهة نظر المسلمين من خلال المصادر المعتمدة عندهم. ثم بعد ذلك من خلال وجهة نظرهم هُم ولا يضرنا بعد ذلك إذا أيدوا أو عارضوا"[٧]، والحقيقة أن غوستاف لوبون قد بذل جهداً كبيراً في في كتابه ممتدحاً حضارة العرب وعلومهم وفضلهم على أوربا، كما قام بجهد مشكور في الدفاع عن الإسلام وتفنيد كثير من الشبهات المثارة حول الإسلام، غير أنه وقع في مغالطات وأخطاء. **وفيما يأتي ذكر طرف منها:**

أ ـ مزاعم وأباطيل غوستاف لوبون حول رسول الله مُحَمَّد ﷺ، ونبوته، ومن ذلك:

ـ قوله بشأن لقاء رسول الله ﷺ ببحيرا الراهب خلال سفره مع عمه أبي طالب إلى الشام في تجارة له:" وتقول القصة إن مُحَمَّداً سافر مع عمه إلى سورية مرةً، وتعرف في بُصرى براهب نسطوري في دير نصراني، فتلقى منه علم التوراة"[٨]. وقوله كذلك: "إذا أرجعنا أرجعنا القرآن إلى عقائده الرئيسية أمكننا عد الإسلام صورةً مبسطة عن النصرانية"[٩].

ب ـ قوله: عن سلوك رسول الله ﷺ نحو يهود بني قريظة بشأن خيانتهم له وقت الحرب ونقضهم العهد الذي كان بينهم وبينه:" وهو لم يقسُ على أعدائه إلا مرةً واحدة حين أمر بأن تُضرب رقاب سبعمائة معتقل يهودي خانوه"[١٠].

(١) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص ٣٧، باختصار.
(٢) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص ١٢.
(٣) ينظر: لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص ١٠٨: ١٢٠.
(٤) ينظر: لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص ١٢٢: ١٣٠.
(٥) ينظر: لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص ١١٦.

(٦) ابن عاشور، الطاهر (١٩٨٤م)، "التحرير والتنوير"، (د.ط)، الدار التونسية التونسية للنشر – تونس ، ٣١/٢٢.
(٧) زقزوق، محمود حمدي،(١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)،"الإسلام في تصورات الغرب"، الغرب"، ط١، دار وهبة، القاهرة، ص١٢.
(٨) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص ١٠٨، وراجع: ص١١٦.
(٩) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص ١١٦.
(١٠) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص١١١، ونسي أو تناسى غوستاف لوبون أنهم ارتكبوا جريمة الخيانة العظمى؛ حيث إنهم نقضوا عهدهم مع

ج ـ زعمه بأن سبب غزو النبي ﷺ، ليهود خيبر لمجرد الترويح عن أصحابه فقط، بعدما رجع من مكة دون أن يتمكن من دخولها وأداء النسك، وفي ذلك يقول: "ورأى مُحَمَّد بعد ذلك الإخفاق أن يُرَوِّح عن أصحابه، فخف بهم إلى مدينة خيبر المحصنة المهمة الواقعة في شمال المدينة الغربي، والبعيدة منها مسرة خمسة أيام، والتي كانت تقطن بها قبائل يهودية، والتي كانت مقر تجارة اليهود، ففتحها عنوة"(١).

د ـ جمعه بين المتناقضات أحياناً: إن مَنْ يطالع كتاب حضارة العرب يجد فيه مؤلفه يقول الشيء ونقيضه في وقت واحد، ومن ذلك ما يأتي:

١ـ قوله: "وكان من مقاصد مُحَمَّد أن يقيم دينًا سهلًا يستمرئه قومه، وقد وُفِّق لذلك حين أخذ من الأديان الأخرى ما يلائمهم، ولم يُفكِّر مُحَمَّد في إبداع دين جديد قط، وهو الذي أعلن أنه يسير على غِرار مَنْ تقدمه من أنبياء بني إسرائيل من إبراهيم إلى عيسى قائلًا إن ما أوحي إليهم صحيحٌ، والحقُّ أن اليهودية والنصرانية والإسلام فروعٌ ثلاثة لأصل واحد، وأنها ذات قُربَى وشيجة"(٢). وهذا النص يتناقض مع كلام سابق للمؤلف قبل بضعة أسطر حيث قرر هناك أن القرآن وحي من عند الله تعالى أنزله على عبده ورسوله مُحَمَّد ﷺ، وأن جبريل عليه السلام كان يتنزل به في أوقات متفرقة حسبما تقتضيه الحاجة(٣).

والحقُّ أنَّ هذا كلام غير مستقيم وينقض أوله آخره باعتراف لوبون نفسه، فلو كان هدف النبي ﷺ استمالة قومه ومطاوعتهم لوصل إليهم من أقرب الطرق وهم الذين كانوا يسعون لاستمالته إليهم ومهادنته، وقد عرضوا عليه الزعامة والمال والملك والسيادة فرض ذلك كله(٤). والأمر الآخر هو أن رسول الله مُحَمَّداً ﷺ لم يقتبس شيئاً من الأديان السابقة عليه وما جاء متوافقاً معها فسببه وحدة المصدر الذي صدرت عنه هذه الرسالات السماوية الثلاث.

٢ـ وقوله: "إذا أرجعنا القرآن إلى عقائده الرئيسية أمكننا عدُّ الإسلام صورةً مبسطةً عن النصرانية، ومع ذلك فإن الإسلام يختلف عن النصرانية في كثير من الأصول، ولا سيما في التوحيد المطلق الذي هو أصل أساسي، وذلك أن الإله الواحد، الذي دعا إليه الإسلام، مهيمنٌ على كل شيء، وللإسلام وحده أن يباهيَ بأنه أولُ دين أدخل التوحيد إلى العالم. وتُشتَقُّ سهولة الإسلام العظيمة من التوحيد المحض، وفي هذه السهولة سرُّ قوة الإسلامِ، والإسلامُ، وإدراكُه سهلٌ، خالٍ مما نراه في الأديان الأخرى ويأباه الذوق السليم، غالبًا، من المتناقضات والغوامض، ولا شيء أكثر وضوحًا وأقل غموضًا من أصول الإسلام القائلة بوجود إله واحد، وبمساواة جميع الناس أمام الله... إلخ"(٥).

والسؤال الآن كيف يقال: (إن الإسلام صورة مبسطة عن النصرانية) وهو مختلف معها تمام الاختلاف ومتناقض معها تمام التناقض، باعتراف غوستاف لوبون نفسه؟!.

● **المبحث الأول: أسس الحضارة الإسلامية وخصائصها:**

يتحدَّث العلامة لوبون عن تأثير المسلمين وحضارتهم في الأمم التي احتكوا بها؛ يقول: "ولا نرى في التاريخ أمةً ذات تأثير بارز كالعرب، والعالم لا يعرف اليوم غير دين أتباع النبي ولغتهم في البلاد الممتدة من المحيط الأطلنطي إلى السند، ومن البحر المتوسط إلى الصحراء(٦).

وللحضارة الإسلامية أسس وخصائص كثيرة منها ما يأتي:

- أولاً: أنها حضارة التوحيد الخالص لله رب العالمين: من خصائص الحضارة الإسلامية أنها تقوم على العقيدة السليمة والإيمان الصحيح، تقوم على التوحيد الخالص لله رب العالمين، وهذا هو سر قوتها وانتشارها في العالمين، يقول المستشرق غوستاف لوبون: "وللإسلام وحده أن يباهي بأنه أول دين أدخل التوحيد إلى العالم، وتُشتق سهولة الإسلام العظيمة من التوحيد المحض، وفي هذه السهولة سرُّ قوة الإسلام، والإسلام، وإدراكه سهل، خالٍ مما نراه في الأديان الأخرى ويأباه الذوق السليم، غالباً من المتناقضات والغوامض، ولا شيء أكثر وضوحاً وأقل غموضًا من أصول الإسلام القائلة بوجود إله واحد، وبمساواة جميع الناس أمام لله، وببضعة فروض يدخل الجنة من يقوم بها، ويدخل النار من يَعرض عنها،... وإنك إذا اجتمعت بأي مسلم من أي طبقة، رأيته يعرف ما يجب عليه اعتقاده، وأن يسرد لك أصول الإسلام في بضع كلمات بسهولة، وهو بذلك على عكس النصراني الذي لا يستطيع حديثاً عن التثليث والاستحالة وما ماثلها من الغوامض من غير أن يكون من علماء اللاهوت الواقفين على دقائق الجدل"(٧).

رسول الله ﷺ وقت الحرب، فكان جزاؤهم القتل جزاء وفاقاً، وسوغ يأتي لهذا الأمر مزيد بيان في المبحث الرابع إن شاء الله تعالى.

(١) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص١١١، وما بعدها، ويلاحظ هنا أن الكاتب لم يذكر أسباب فتح النبي ﷺ لخيبر، وسوف يأتي مزيد بيان لهذا الأمر في المبحث الرابع إن شاء الله تعالى.

(٢) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص١٣١، وما بعدها.

(٣) ينظر: لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص١٢١.

(٤) ينظر: ابن إسحاق مُحَمَّد بن يسار المطلبي بالولاء، المدني (١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م)، " السيرة النبوية، سيرة ابن إسحاق"، تحقيق: سهيل زكار، ط١، دار الفكر - بيروت، ٢٠٦/١، ٢٠٧، ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (١٣٩٥هـ - ١٩٧٦م)، "السيرة النبوية"، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان، (بدون).

(٥) ينظر: لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص١٢١.

(٦) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص ٥٨٤:٥٨٦.

(٧) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص١٣٢.

- **ثانياً: أنها حضارة عالمية عامة:** تخاطب الناس أجمعين، ومن الأدلة على ذلك رسائل النبي مُحَمَّد ﷺالتي أرسلها لملوك ورؤساء عصره، وفي هذا الشأن ذكر غوستاف لوبون: أن النبي أرسل ـ قبل فتح مكة ـ كتباً إلى جميع الجهات، وإلى أقوى ملوك الأرض أيضاً، يدعوهم فيها إلى الإسلام[١].

- **ثالثاً: أنها حضارة التسامح والعدل والمساواة:** من خصائص الحضارة الإسلامية أنها تقوم على تحقيق العدل والمساواة التامة بين الناس جميعاً، وفي ذلك يقول:" والإسلام من أعظم الديانات تهذيبًا للنفوس وحملًا لها على العدل والإحسان والتسامح "[٢].

ويقول: "إن التسامح الديني كان مطلقًا في دور ازدهار حضارة العرب، وقد أوردنا على هذا غير دليل، ولا نُسهب فيه... فتسامح مثل هذا هو مما لم تصل إليه أوربة بعد ما قامت به في أكثر من ألف سنة من الحروب الطاحنة، وما عانته من الأحقاد المتأصلة، وما مُنِيَت به من المذابح الدامية"[٣].

وعن سلوك عمرو بن العاص نحو أهل مصر، يقول:" فقد عَرَض على المصريين حرية دينية تامة، وعدلًا مطلقًا واحترامًا للأموال وجزيةً سنوية ثابتة لا تزيد على خمسة عشر فرنكًا عن كلِّ رأس بدلًا من ضرائب قياصرة الروم الباهظة، فرضِيَ المصريون طائعين شاكرين بهذه الشروط دافعين للجزية سلفًا، وقد بالغ العرب في الوقوف عند حد هذه الشروط، والتقيد بها؛ فأحبهم المصريون الذين ذاقوا الأمرَّين من ظلم عمال قياصرة القسطنطينية النصارى، وأقبلوا على اعتناق دين العرب ولغتهم أيَّما إقبال، ونتائج مثل هذه لا تُنال بالقوة كما قلت غير مرة،

ولم يَظْفَر بمثلها من مَلَكَ مصر من الفاتحين قبل العرب"[٤].

رابعاً: أنها حضارة اليسر والسماحة: يقول: "والدين الذي دعا النبيُّ إليه الناس سهل جدّا، وقد عَرَفه مُحَمَّد بالكلمات القليلة الآتية حين أتاه جبريل بزيّ العرب وسأله عنه، وهي «أن تشهد أن لا إله إلا لله وأن محمدًا رسول لله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصومَ رمضان، وتحجَّ البيت لمن استطاع إليه سبيلًا»، وهذا التعريف الذي قَبِله جبريل تامٌّ كما هو واضح، ويُلخِّص المسلم الإسلام في هاتين الكلمتين اللتين لا يُنكَر إيجازُهما، وهما:« لا إله إلا لله محمدٌ رسول لله»"[٥].

خامساً: أنها حضارة العلم: يقول:" والإنسانُ يقضي العجب من الهِمة التي أقدم بها العرب على البحث.. ولا تجد أمة فاقت في ذلك العرب، فكانوا إذا ما استولَوا على مدينة صرفوا هِمَّهم إلى إنشاء مسجد وإقامة مدرسة فيها، وإذا ما كانت تلك المدينة كبيرةً أسسوا فيها مدارس كثيرة. وهذا عدا اشتمال المدن الكبرى كبغداد والقاهرة وطليطلة وقرطبة على جامعات مشتملة على مختبراتٍ ومراصد ومكتبات غنية، وكل ما يساعد على البحث العلمي، وكان للعرب في إسبانية وحدها سبعون مكتبة عامة، وكان في مكتبة الخليفة الحكم الثاني بقرطبة ستمائة ألف كتاب منها أربعةٌ وأربعون مجلدًا من الفهارس كما روى مؤرخو العرب، وقد قيل، بسبب ذلك إن شارل الحكيم لم يستطع، بعد أربعمائة سنة، أن يجمع في مكتبة فرنسة المَلَكية أكثر من تسعمائة مجلد يكاد ثلثها يكون خاصًا بعلم اللاهوت"[٦].

وتحت عنوان: (مناهج العرب العلمية) يقول:" ويُعزَى إلى (بيكون)، على العموم، أنه أول من أقام التجربة والترصد، اللذين هما ركن المناهج العلمية الحديثة، مقامَ الأستاذ، ولكنه يجب أن يُعتَرَف اليوم بأن ذلك كله من عمل العرب وحدهم، وقد أبدى هذا الرأي جميعُ العلماء الذين درسوا مؤلفات العرب... وقد ارتَقَوا في علومهم إلى هذه الدرجة التي كان يجهلها القدماء تقريبًا ... إن أهم ما اتصفت به مدرسة بغداد في البَداءة هو روحُها العلمية الصحيحة التي كانت سائدةً لأعمالها، وكان استخراجُ المجهول من المعلوم، والتدقيق في الحوادث تدقيقًا مؤديًا إلى استنباط العلل من المعلولات، وعدمُ التسليم بما لا يَثبُت بغير التجربة — مبادئَ قال بها أساتذة من العرب، وكان العرب، في القرن التاسع من الميلاد، حائزين لهذا المنهاج المُجدي الذي استعان به علماء القرون الحديثة بعد زمن

طويل للوصول إلى أروع الاكتشافات"[٧].

- **المبحث الثاني: أثر الحضارة الاسلامية في الحضارة الغربية:**

لقد قدَّم المسلمون خدمات عظيمة للعالم أجمع وظل العالم الغربي ينتفع بها زهاء ستة قرون، وعن جهود المسلمين التي بذلوها في ترجمة العلوم ونقلها للغة العربية وما أضافه علماء المسلمين، يقول غوستاف لوبون: "وكلما أمعنا النظر في درس حضارة العرب وكتبهم العلمية واختراعاتهم وفنونهم ظهرت لنا حقائق جديدة وآفاق واسعة، ولسرعان ما رأينا أن العرب أصحاب الفضل في معرفة القرون الوسطى لعلوم الأقدمين، وأن جامعات الغرب لم تعرف لها مدة خمسة قرون، مورداً علمياً سوى مؤلفاتهم وأنهم هم الذين مدنوا أوربة؛ مادةً وعقلاً وأخلاقاً، وأن التاريخ لم يعرف أمةً أنتجت ما أنتجوه في وقت قصير، وأنه لم يَفُقْهم قوم في الإبداع الفني، وتأثير العرب عظيم في الغرب، وهو في الشرق أشد وأقوى"[٨]، ويقول:

(١) ينظر: لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص١١٣.
(٢) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص١٣٢.
(٣) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص٥٩٠، وما بعدها.
(٤) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص١٤٤.
(٥) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص ١٢٢.
(٦) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص٤٥٠، وراجع: ص ١٣٢.
(٧) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص ٤٥٠:٤٥٢، باختصار، باختصار، وراجع: ص ٥٨٥، وما بعدها.
(٨) لوبون، غوستاف،(١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م)، "حضارة العرب"، ط٦، دار العالم العالم العربي، القاهرة، ص٢٦.

"وقد استوقف العالم الذي فَتَحَه أتباع النبي خيالَهم المضطرم، فأخذوا يدرسون الآداب والفنون والعلوم بمثل نشاطهم في فتوحهم، ولم يلبث الخلفاء، بعد أن شادوا دولتهم، وأن أنشأوا في جميع المدن المهمة مراكز للتعليم، وجمعوا حولهم كل عالم قادر على ترجمة أشهر الكتب، ولا سيما كتب اليونان ... وتعلموا عدداً من اللغات الأخرى، وكان اليونان أساتذة العرب الأولين إذن، ولكن العرب المفطورين على قوة الإبداع والنشاط لم يكتفوا بحال الطلب الذي اكتفت به أوربة في القرون الوسطى؛ فلم يلبثوا أن تحرَّرُوا من ذلك"[(١)].

ويقول: "تُثبِتُ الآن أن تأثير العرب في الغرب عظيم أيضًا، وأن أوربة مدينة للعرب بحضارتها، والحق أن تأثير العرب في الغرب ليس أقلَّ منه في الشرق، ولكن بمعنى آخر، فأما تأثيرهم في الشرق فتراه باديًا في أمر الدين واللغة والفنون على الخصوص ... وترى تأثيرهم العلمي والأدبي والخلقي في الغرب عظيمًا"[(٢)].

ويقول:" كان للحضارة الإسلامية تأثيرٌ عظيم في العالم، وإن هذا التأثير خاص بالعرب وحدهم ... وإن العرب هَذَّبوا البرابرة الذين قَضَوا على دولة الرومان بتأثيرهم الخُلقي، وإن العرب هم الذين فتحوا لأوربة ما كانت تجهله من عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية بتأثيرهم الثقافي، فكانوا مُمدّنين لنا وأئمَّةً لنا ستة قرون"[(٣)].

لقد كان للحضارة الإسلامية أثر كبير في الحضارة الغربية؛ بما قدمته من خدمات جليلة للبشرية جمعاء في شتى العلوم ومختلف الفنون، وفيما يأتي ذكر لطرف منها:

أولاً: في علم الرياضيات وعلم الفلك:

١ ـ علم الرياضيات: يقول: "اتَّسع البحث في الرياضيات، ولا سيما علمُ الجبر، عند العرب، وعُزِيَ إلى العرب اكتشاف علم الجبر... وقد حوَّل العرب علم الجبر تحويلًا تامًا، وإليهم يرجِع الفضل في تطبيقه على علم الهندسة.

وبلغ علم الجبر من الانتشار بين العرب ما ألَّف معه مُحَمَّد بن موسى كتابًا مُوطَّئًا له بأمر المأمون في أوائل القرن التاسع من الميلاد، ومن ترجمة هذا الكتاب اقتبس الأوربيون معارفَهم الأولى لعلم الجبر، بعد زمنٍ طويل.

ويمكن القول: بأن العرب هم الذين أدخلوا المماس إلى علم المثلثات، وأقاموا الجيوب مقام الأوتار، وطبَّقوا علم الجبر على الهندسة، وحلُّوا المعادلات المكعَّبة، وتعمقوا في مباحث المخروطات، وحوَّلوا علم المثلثات الكُرِيّة بردهم حلَّ مثلثات الأضلاع إلى بضع نظرياتٍ أساسية تكون قاعدةً له"[(٤)].

٢ ـ علم الفلك: يقول: "علم الفلك هو من أوَّل ما اعتُنِيَ به في بغداد ... وكانت بغداد مركزًا مهمًا لمباحث علم الفلك، ولكنها لم تكن مركز هذه المباحثِ الوحيدَ، فالمراصدُ التي كانت قائمة في البلاد الممتدة من آسية الوسطى إلى المحيط الأطلنطي كثيرة، ومنها ما كان في دمشق وسمرقند والقاهرة وفاس وطليطلة وقرطبة ... إلخ ... وأهم مدارس الفلك ما كان في بغداد والقاهرة والأندلس"[(٥)]. ويقول:" وأدَّت مدرسة بغداد الفلكية في زمن هارون الرشيد، وفي زمن ابنه المأمون (٨١٤ م– ٨٣٣ م) على الخصوص، إلى أعمال مهمة، وأدْمَجِت مجموعة الأرصاد التي تم أمرها في المراصد ببغدادَ ودمشق في كتاب: «الزيج المصحَّح» الذي نأسف على ضَيَاعه، ومع ذلك يمكننا أن نعلم صحة الأرصاد التي اشتمل عليها هذا الكتاب من الدقة العظيمة التي عُنِّيَ بها انحرافُ سمت الشمس في ذلك الزمن، فقد كان رَقْمُ الانحراف، كما حُقِّق فيه، ٢٣ درجةً و٣٣ دقيقةً و٥٢ ثانيةً؛ أي: ما يَعْدِل الرَّقم الحاضر... وأشهرُ علماء الفلك الكثيرين الذين ظهروا بعد أولئك هو أبو الوفاء المتوفى ببغداد في سنة (٩٩٨م)، ومما عَرَفه هذا العالمُ الفلكيُّ هو الاختلافُ القمريُّ الثالث الذي أشرنا إليه آنفًا، وذلك كما ظهر من كتابه العربي الخطي المهم الذي عَثَر عليه سيديُّو منذ بضع سنين ... والحقُّ أن هذا الاكتشاف، الذي عُزِي بعد أبي الوفاء بستمائة سنة إلى (تيخو براهه)، عظيمٌ إلى الغاية، فقد استدلَّ (مسيو سيديُّو) به على وصول مدرسة بغداد، في أواخر القرن العاشر، إلى أقصى ما يُمكن علمَ الفلك أن يَصِل إليه بغير نظَّارة ومِرْقَب"[(٦)]. ويقول: "إن العرب هم الذين نشروا علم الفلك في العالم كله بالحقيقة"[(٧)].

ومن علماء الفلك في بلاد المغرب وإفريقية" أبو الحسن المراكشي، الذي كان يعيش في القرن الثالث عشر من الميلاد، فقد عَيَّن، بضبط لم يسبقه إليه أحد، العرضَ والطولَ لإحدى وأربعين مدينة إفريقية واقعة بين مراكش والقاهرة، أي ما مسافته تسعمائة فرسخ، وأنه قيَّد مشاهداتِه في كتابه:« جامع المبادئ والغايات في

(١) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص٤٤٩، وما بعدها، (باختصار).
(٢) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص ٤٦٨.
(٣) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص ٦٠١.
(٤) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص٤٧١.
(٥) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص٤٧٢.
(٦) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص٤٧٢، وما بعدها.
(٧) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص٤٧٤.

علم الميقات»، الذي اشتمل على معارفَ ثمينةٍ لآلات الرصد العربية، فترجم سيديُّو بعضه"[١].

وعن اكتشافات العرب الفلكية يقول:" إدخال المماس إلى الحساب الفلكي منذ القرن العاشر من الميلاد، ووضع أزياجٍ لحركات الكواكب، وتعيينٌ دقيق لانحراف سمت الشمس ونقصانه التدريجي، وتقدير مبادرة الاعتداليين بالضبط، وتحديدٌ صحيح لمدة السنة، وتحقيق لشذوذ أعظم عرض للقمر، وكشف للاختلاف القمري الثالث المعروف بالاختلاف في الوقت الحاضر، والذي قيل إن (تيخو براهه) اهتدى إليه في سنة (١٦٠١م)، لأول مرة"[٢].

ثانياً: براعة العرب في العلوم الجغرافية: يقول: "وكانت طليعةُ رُوَّادِ العرب مؤلفةً من تجار يَسِيحُون للتجارة، وعلى ما كان يُعْوِز هؤلاء من الاستعداد الضروري للتأمل العلمي لم تخلُ رِحلاتهم التجارية من طرائف مفيدةٍ في بعض الأحيان؛ حقًّا لم يخرج أمر سِياحات العرب القديمة التي انتهى إلينا خبرها عن ذلك المعنى، ومنها سياحةُ التاجرِ سليمانَ لبلاد الصين في القرن التاسع من الميلاد، فقد أبحر من مرفأ سيراف الواقع على الخليج الفارسي حيث كانت تكثر المراكب الصينية، وجاوز المحيط الهندي، وبلغ شواطئ بلاد الصين، وكَتَبَ رحلته في سنة (٨٥١م)، ثم أُكمل أحد أبناء وطنه أبو زيد كتاب هذه الرحلة في سنة(٨٨٠م)، وأضاف إليها معارف أخذها عن عربٍ زاروا بلاد الصين

وكتاب سليمان، الذي نُقل إلى اللغة الفرنسية في أوائل القرن الأخير، هو أول مؤلَّفٍ نُشر في بلاد الغرب عن بلاد

الصين، وإذا كان سليمان باحثًا عاديًا فغيرُ ذلك شأن المسعودي الشهير الذي وُلد ببغداد في أواخر القرن التاسع من الميلاد، فقد قَضى المسعودي خمسًا وعشرين سنة من حياته في الطواف في مملكة الخلفاء الواسعة، وفي الممالك المجاورة لها كبلاد الهند، وقيَّد ما شاهده في تآليفه الكثيرة المهمة التي تَعد كتاب «مروج الذهب» أشهرها، قال المؤرخ العربي العلامةُ ابن خلدون الذي ذَكرناه غيرَ مرة والذي ظهر بعد المسعودي بأربعمائة سنة ما يأتي: فأما ذِكر الأحوال العامة للآفاق والأجيال والأعصار، فهو أسُّ للمؤرخ تنبني عليه أكثر مقاصده، وتتَبين به أخبارُه، وقد كان الناس يفردونه بالتأليف، كما فعله المسعودي في كتاب مروج الذهب، شرح فيه أحوال الأمم والآفاق لعهده في عصر الثلاثين والثلاثمائة (٩٤١م)، غربًا وشرقًا، وذكر نِحَلهم وعوائدهم، ووَصف البلدان والجبال والبحار والممالك والدول، وفرَّق شعوب العرب والعجم، فصار إمامًا للمؤرخين يرجعون إليه، وأصلًا يُعوِّلون في تحقيق الكثير من أخبارهم. ثم بدأ ابن حوقل، الذي وُلد كالمسعودي في بغداد برحلاته بعد أن تمت رحلات المسعودي، واسمَع ما قاله ابن حوقل في كتابه: قد عَمِلْتُ كتابي هذا بصفة أشكال الأرض ومقدارها في الطول والعرض وأقاليم البلدان ومحلِّ الغامر منها والعمران، من جميع بلاد الإسلام، بتفصيل مدنها، وتقسيم ما تَفَرَّد بالأعمال المجموعة إليها، وقد جعلتُ لكل قطعة أفردتُها تصويرًا وشكلًا يَحْكي موضعَ ذلك الإقليم، ثم ذكرتُ ما يحيط به من الأماكن والبقاع، وما في أضعافها من المدن والأصقاع، وما لها من القوانين والارتفاع، وما فيها من الأنهار والبحار، وما يحتاج إلى معرفته من جواملِ ما يشتمل عليه ذلك الإقليم من وجوه الأموال والجبايات والأعشار والخراجات والمسافات في الطرُقات، وما فيه من المجالب والتجارات؛ إذ ذلك علمٌ يتفرَّد به الملوك والساسة وأهل المروءات والسادة من جميع الطبقات.

ورافق البيرونيُّ السلطانَ محمودًا الغزنوي في حملته التي جردها على بلاد الهند في سنة (١٠٠٠م)، ونشر ما شاهده في بلاد السند وشمال الهند، وحاول البيروني أن يُصَحح خريطة تلك البلاد مستندًا إلى حسابه الفلكي"[٣].

ويقول:" وآخر رحالة عربي كبير نذكره هو ابن بطوطة الذي بدأ بسياحاته في سنة (١٣٢٥م)، مسافرًا من مدينة طنجة المراكشية ومُتجَوِّلًا في إفريقية الشمالية ومصر وفلسطين والعراق وشمال جزيرة العرب إلى مكة، وفي روسية الجنوبية والقسطنطينية ... إلخ، والذي ذهب إلى بلاد الهند مارًّا من بخارى وخراسان وقندهار، فبلغ مدينة دلهي التي كانت من العواصم الإسلامية، والتي أوفده سلطانها إلى عاهل الصين فانتهى إلى بلاد الصين بحرًا، وقد زار في طريقه إلى الصين سيلان وسومطرة وجاوة، ووصل إلى المدينة التي تُعرف بيكين في الوقت الحاضر، ثم عاد إلى وطنه بطريق البحر، ودامت تلك السياحات الأولى التي قام بها ابن بطوطة أربعًا وعشرين سنة، ولكن ابن بطوطة لم يشعر في أثنائها بتعب، فقد زار بعدها بلاد الأندلس، وأوغل في قلب إفريقية، وانتهى إلى مدينة تنبَكْتو، وتوفيَّ ابن بطوطة في مدينة فاس سنة (١٣٧٧م) بعد أن طاف، تقريبًا، في جميع العالم الذي كان معروفًا في عصره، فرياداتٌ كالتي أتاها تكفي لتمجيد من يقوم بها في زماننا أيضًا"[٤].

وتحت عنوان: (التقدم الذي حققه العرب في الجغرافية) يقول:" كان من نتائج ريادات العرب ومعارفهم الفلكية التي ذكرتُها أن اتفق لعلم الجغرافية تقدم مهمٌّ، ولا غرو؛ فالعرب الذين اتخذوا في البداية علماء اليونان، ولا سيما بطليموس، أَدِلَّاء لهم في علم الجغرافية لم يلبثوا أن فاقوا أساتذتهم فيه على حسب عادتهم. كانت

(١) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص٤٧٧، وما بعدها.
(٢) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص٤٧٩، وما بعدها.
(٣) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص٤٨١: ٤٨٣.
(٤) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص٤٨٣، وما بعدها.

مواضع المدن الكثيرة التي عَيَّنها بطليموس تعيينًا جغرافيًا غيرَ مطابقة للحقيقة تمامًا، وبلغ مقدار غَلَطِه في تعيين طول البحر المتوسط وحده أربعمائة فرسخ. ويكفي أن نقابل بين الأمكنة التي عينها الأغارقة والأمكنة التي عينها العرب؛ ليظهر لنا مقدار التقدم الذي تم على يد العرب، فهذه المقابلة تدل على أن مقدار العرض الذي حققه العرب يَقْرُب من الصحة بما لا يزيد على بضع دقائق، وأن خطأ الأغارقة فيه بلغ درجاتٍ كثيرة... وكتب العرب التي انتهت إلينا في علم الجغرافية مهمةٌ إلى الغاية، وكان بعضها أساسًا لدراسة هذا العلم في أوربة قرونًا كثيرة ... وما كتبه المسعودي المعاصر للإصطخري والمقدسي في سنة (٩٨٥م) في علم الجغرافية هو من قبيل الرحلات أكثر من أن يكون من الكتب الجغرافية، وأشهر جغرافيي العرب هو الإدريسي، ومن كُتب الإدريسي، التي تُرجمت إلى اللاتينية، تعلَّمت أوربة علم الجغرافية في القرون الوسطى. ووُلد الإدريسي في الأندلس، ثم ساقت الإدريسي مغامراتٌ كثيرة إلى بلاط ملك صقلية، روجر، بعد أن استولى النورمان عليها بزمن قصير، ولما كانت سنة (١١٥٤م) ألَّف الإدريسي كتابه الجغرافيَّ العظيم، مشتملًا على ما قيده المتقدمون في علم الجغرافية، وعلى ما رواه عن السياح من المعارف الكثيرة، وعلى عدة خرائط؛ فاقتصرت أوربة على نَسْخِه مدة ثلاثة قرون. وخريطة الإدريسي التي نَشَرْتُ صورتها، والتي اشتملت على منابع النيل والبحيرات الاستوائية الكبيرة، أي على هذه الأماكن التي لم يكتشفها الأوربيون إلا في العصر "الحاضر، أكثرُ خرائطه طرافة، فهي تثبت أن معارف العرب في جغرافية إفريقية أعظمُ مما ظُنَّ زمنًا طويلًا. وأذكر من جغرافيي العرب القزويني وياقوتًا الحموي اللذين عاشا في القرن الثالث عشر من الميلاد، وأن كتاب هذا الأخير مُعجَمٌ جغرافيٌّ حافلٌ بوثائقَ عن جميع البلدان التي تتألف منها دولة الخلافة"[(١)].

- شبهة مثارة حول تميز الجغرافيين المسلمين:

أنكر فضل العلماء المسلمين وبراعتهم وريادتهم في العلوم الجغرافية مجموعة من علماء أوربا، ويفند غوستاف لوبون هذه الفكرة الخاطئة ويرد عليها؛ فيقول: "ويحتاج إحصاء أهم جغرافيي العرب وما ألفوا من الكتب إلى بيان طويل، فقد ذكر أبو الفداء وحده أسماء ستين عالمًا جغرافيًا من الذين ظهروا قبله، وتكفي الخلاصة السابقة لإثبات شأنهم مع ذلك، ولولا إصرار الأوربيين الخاص على مُبْتَسراتهم الموروثة، التي لا تزال باقية، حِيالَ الإسلام؛ لتعذر إيضاح السبب في إنكار علماء أفاضل في الجغرافية، كمسيو قيقيان دو سان مارتن، لذلك الشأن، ومع ذلك يكفي ما أتى به العرب من عملٍ كبير لإثبات قيمتهم، فالعرب هم الذين انتَهَوا إلى معارف فلكية مضبوطة من الناحية العلمية عُدَّت أول أساسٍ للخرائط، فصححوا أغاليط اليونان العظيمة في المواضع، والعرب، من ناحية التِرياد، هم الذين نشروا رحلاتٍ عن بقاع العالم التي كان يشكُّ الأوربيون في وجودها، فضلًا عن عدم وصولهم إليها، والعرب، من ناحية الأدب الجغرافي، هم الذين نشروا كتبًا قامت مقام الكتب التي أُلِّفت قبلها؛ فاقتصرت أمم الغرب على استنساخها قرونًا كثيرة"[(٢)].

ثالثاً: الفيزياء وتطبيقاتها عند المسلمين:

١ ـ الفيزياء: وعن جهود المسلمين في علم الفيزياء يقول: "ومما يدل على أهمية كتب العرب في الفيزياء كتابُ الحسن بن الهيثم في البَصَريات الذي نُقل إلى اللغة اللاتينية واللغة الإيطالية؛ فاستعان كِيبلر به كثيرًا في كتابه عن البَصَريات، ويرى القارئ في كتاب الحسن فصولًا دقيقة عن حرارة المرايا ومحلِّ الصور الظاهر في المرايا، وانحراف الأشياء، وجسامتها الظاهرة ... إلخ، ويرى فيه، على الخصوص، حلًا هندسيًا للمسألة الآتية التي تتعلق بمعادلة من الدرجة الرابعة، وهي: إذا عُلِمَ موضعُ نقطةٍ مضيئة ووَضْعُ العين، فكيف تَجِدُ على المرايا الكُرِيَّة والأسطوانية النقطة التي تتجمَّع فيها الأشعة بعد انعكاسها؟ فعدَّ مسيو شال، الذي هو حُجة في هذه الموضوعات، هذا الكتاب: «مصدر معارفنا للبصريات»"[(٣)].

٢ ـ الميكانيكا: يقول:" معارف العرب الميكانيكية العملية واسعةٌ جدًا، ويُستدل على مهارتهم في الميكانيكا من بقايا آلاتهم التي انتهت إلينا، ومن وصفهم لها في مؤلفاتهم ...وقد عرف العرب الساعات المائية و الساعات ذات الأثقال التي تختلف كثيرًا عن الساعات المائية"[(٤)].

٣ ـ الكيمياء: يقول: "وأقدم علماء العرب في الكيمياء وأكثرهم شهرةً هو (جابر بن حيان) الذي عاش في أواخر القرن الثامن من الميلاد ... ونُقِل عدد غير قليل من كتبه إلى اللغة اللاتينية، وقد نُقِل كتابه: (الاستتمام)، الذي هو من أهم كتبه، إلى اللغة الفرنسية في سنة (١٦٧٢م)، فدل هذا على دوام نفوذه العلمي في أوربة مدةً طويلة.

ويتألف من كتب جابر موسوعةٌ علمية حاوية خلاصةَ ما وَصل إليه علم كيمياء العرب في عصره، وتشتمل هذه الكتب على وصف كثير من المركبات الكيماوية التي لم تُذكَر قبله ... واكتشف العرب، أيضًا، مركبات أخرى لا غُنْيَة للكيمياء والصناعة عنها ... ويبدو لنا مقدارُ

(١) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص٤٨٤: ٤٨٦.

(٢) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص٤٨٦.

(٣) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص٤٨٧.

(٤) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص٤٨٧، وما بعدها، باختصار.

معارفهم في الكيمياء الصناعية من حِذقهم لفنّ الصباغة، واستخراج المعادن، وصنع الفولاذ، ودِباغة الجلود ... إلخ"[١].

رابعاً: العلوم التطبيقية :(الاكتشافات) عند المسلمين:

١ ـ المعارف الصناعية:

ـ اختراع العرب للبارود والأسلحة النارية: يقول:" لم يُهمل العربُ أمر التطبيقات الصناعية مع قيامهم بمباحثهم النظرية، وكان لصناعات العرب تفوُّقٌ عظيم بفضل معارفهم العلمية، ونعلم ما أدت إليه صناعاتهم من النتائج، وإن جَهِلنا أكثر طرقها، فنعرف، مثلًا، أنهم كانوا يعلمون استغلال مناجم الكبريت والنحاس والزئبق والحديد والذهب، وأنهم كانوا ماهرين في الدِّباغة، وفي فن تسقية الفولاذ، كما تشهد بذلك نصال طليطلة، وأنه كان لنسائجهم وأسلحتهم وجلودهم ورقهم شهرةٌ عالمية، وأنه لم يسبقهم أحد في كثير من فروع الصِّناعة إلى عصرهم، كاختراعهم للبارود والأسلحة النارية. وإن العرب هم الذين استخرجوا قوة البارود الدافعة، أي أن العرب هم الذين اخترعوا الأسلحة النارية"[٢].

ـ اكتشاف العرب للورق: يقول: "وتُثبِت المخطوطة التي عَثَر عليها الغزيري في مكتبة الإسكوريال والمكتوبة في سنة (١٠٠٩م) على ورق مصنوع من القطن، والتي هي أقدم من جميع المخطوطات الموجودة في مكتبات أوربة، أن العرب أول من أحلَّ الورقَ محل الرَّقِّ ... ومن الثابت أيضًا أن العرب اخترعوا من الأسمال[٣] صِناعة الورق الصعبة الكثيرة التراكيب، ويُستند في هذا الرأي إلى أن العرب استخدموا هذا النوع من الورق في زمن أقدم من الزمن الذي استخدمته فيه الأمم النصرانية بمدة طويلة، فأقدمُ ورق موجود في أوربة من هذا النوع هو ورق الكتاب الذي أرسله جوانفيل إلى الملك سان لويس قُبيل وفاته في سنة (١٢٧٠م)؛ أي: بعد حملته الصليبية المصرية الأولى، مع أن لدينا ورقًا ربيًّا صُنِع من الأسمال قبل هذا التاريخ بنحو قرن، كالورق المحفوظ بين مخطوطات برشلونة، والمكتوبة عليه معاهدة السَّلْم بين ملك أرغونة الأذفونش الثاني وملك قشتالة الأذفونش الرابع في سنة (١١٨٧م)، والمصنوع في مصنع شاطبة العربيِّ الشهير الذي امتدحه العالم الجغرافيُّ الإدريسيُّ في النصف الأول من القرن الثاني عشر من الميلاد، ونشأ عن كثرة المكتبات العامة والخاصة في الأندلس أيام سلطان العرب، بما لم تَعرِفه أوربة في ذلك الزمن أن اضطُرَّ العرب إلى زيادة مصانع الورق، فانتهَوا إلى صنعه، بإتقان عظيم، من القِنَّب[٤] والكتان الوافرين في الحقول في ذلك الحين"[٥].

ـ استخدام العرب للبوصلة في الملاحة: يقول: "البوصلة من اختراع الصينيين، ولكنه لم يقُم دليل على استخدامهم لها في الملاحة ... والذي لا ريب فيه هو أن الأوربيين أخذوا هذا الاختراع المهم عن العرب ... ومع ذلك فقد مَرَّ بعض الزمن على الأوربيين قبل إدراك فائدته، فالأوربيون لم يستخدموه قبل القرن الثالث عشر من الميلاد، مع أن الإدريسي الذي تكلم عنه في أواسط القرن الثاني عشر من الميلاد ذكره على أنه كثير الشيوع بين بني قومه"[٦].

خامساً: العلوم الطبية عند المسلمين:

١ ـ جهود علماء الإسلام في الطب: يقول: "يُعَدُّ الطبُّ والفلك والرياضيات والكيمياء أهمَّ العلوم التي عُنِي بها العرب، وأتم العرب أعظم اكتشافاتهم في هذه العلوم، وتُرجمت مؤلفات العرب الطبية في جميع أوربة، ولم يَتْلَف قسمٌ كبير منها كما أصاب كتبَهم الأخرى. وعدد المؤلفين من أطباء العرب كبيرٌ إلى الغاية، وخَصَّص ابن أبي أُصَيبعة مجلدًا من كتابه لتراجم أطباء العرب فنكتفي بذكر بعض من اشتهر منهم.

نهض الأغارقة بالطبِّ أكثر مما نهضوا بمعظم العلوم الأخرى، ووجد العرب في مؤلفاتهم مباحث مفيدةً .وكان هارون (٦٨٥م) أول من قام بترجمة كتب اليونان الطبية، وكانت مجموعته الطبية مقتطفاتٍ من كتب أطباء اليونان، ولا سيما جالينوس، ثم تُرجِمت كتب بقراط وبولس الإجِين ... إلخ .بعد ذلك بزمن قليل. والرازي، الذي ذكرنا أنه من علماء الكيمياء، هو من أشهر أطباء العرب .ووُلد الرازي سنة (٨٥٠ م)، وتوفي سنة (٩٣٢م) بعد أن زاول الطبَّ في بغداد خمسين سنة، وألف الرازي في شتى الموضوعات كالفلسفة والتاريخ والكيمياء والطب ... إلخ، ووَضَع الرازي آثار من ظهر قبله من الأطباء على محكِّ النقد الشديد فوق فراش المرضى، وكان ما كتبه في بعض الحُمَّيات ذات البُثُور كالحصبة والجدري مُعَوَّلَ الأطباء زمنًا طويلًا، وكان واسع الاطلاع على علم التشريح، وكان كتابه في أمراض الأطفال أولَ كتابٍ بَحَثَ في هذا الموضوع، ويُرى في كتبه وسائلُ جديدةٌ للمداواة، كاستخدام الماء البارد في الحميَّات المستمرة الذي أخذ به علم الطب الحديث، وكاستخدام الكحول والفتائل، وكاستخدام المحاجم المعالجة داء السكتة ... إلخ.

(١) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص٤٨٩: ٤٩١، باختصار.
(٢) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص٤٩٢: ٤٩٤.
(٣) الثياب البالية. انظر: ابن منظور، "لسان العرب"، مادة (سَمَلَ)، ٣٤٥/١١.
(٤) نوع من النبات. ينظر: مصطفى، إبراهيم وآخرون، "المعجم الوسيط"، مادة (قَنَبَ)، ٧٦١/٢.
(٥) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص٤٩٦:٤٩٨.
(٦) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص٤٩٩.

وكان الرازي متواضعًا كما كان طبيبًا حاذقًا دقيقًا ... وأشهرُ كتب الرازي كتابُ (الحاوي) الذي جمع فيه صناعة الطب، وكتابُ (المنصوري) الذي بعث به إلى الأمير منصور والمؤلَّف من عشرة أقسام، وهي: التشريح، والأمزجة،

والأغذية والأدوية، والصحة، ودواء البَشَرَة، ونظام السفر، والجراحة، والسموم، والأمراض على العموم، والحُمَّى "[١].

ويقول: "وتُرجِمَت أكثر كتب الرازي إلى اللغة اللاتينية، وطُبعت عدَّةَ مرات، ولا سيما في البندقية سنة (١٥٠٩م)،

وفي باريس سنة (١٥٢٨م)، وسنة (١٧٤٨م)، وأعُيد طبع ترجمة كتابه في الجُدَرِي والحصبة سنة (١٧٤٥م)، وظلت جامعات الطب في أوربة تعتمد على كتابه في الجُدَرِي والحصبة سنة (١٧٤٥م)، وظلت جامعات الطب في أوربة تعتمد على كتبه زمنًا طويلًا، وكانت كتبه، مع كتب ابن سينا، أساسًا للتدريس في جامعة لوفان في القرن السابع عشر من الميلاد، كما ثبت ذلك من برنامج وُضِع سنة (١٦١٧م)"[٢].

وذكر لوبون من الأطباء العرب "عليَّ بن العباس المعاصر للرازي تقريبًا، والذي عاش في أواخر القرن العاشر من الميلاد، ونذكر من كتبه كتاب (الملكي) المشتمل على الطب النظري والطب العملي، والذي استند فيه إلى مشاهداته في المشافي، لا إلى الكتب، وأظهر فيه عدة أغاليط لبقراط وجالينوس وأرياسيوس وبولس الإجيني ... إلخ، وابتعد فيه وتَرْجَم إتيان الأنطاكي هذا الكتاب إلى اللغة اللاتينية سنة ١١٢٧ م، وطُبع هذا الكتاب عن مبادئ الطب اليوناني كثيرًا في معالجة الأمراض على الخصوص مع اعتماده عليها، في مدينة ليون سنة ١٥٢٣م"[٣].

ويقول عن أشهر الأطباء العرب: "ويعدُّ ابن سينا الذي وُلِدَ سنة (٩٨٠م)، وتُوفي سنة ١٠٣٧م، أشهر جميع أطباء العرب، وبلغ ابن سينا من التأثير في عالم الطب عدة قرون ما لُقِّب معه بأمير الطب"[٤].

ويشتمل كتاب القانون في الطب لابن سينا "على علم وظائف الأعضاء، وعلم الصحة، وعلم الأمراض، وعلم المعالجة، والمادةِ الطبية، ووُصِفَت فيه الأمراض بأحسن مما وُصِفَت به في الكتب التي أُلِّفت قبله.

وتُقِلت كتب ابن سينا إلى أكثر لغات العالم، وظلت مرجعًا عامًا للطب ستة قرون، وبقيت أساسًا للمباحث الطبية في جميع جامعات فرنسة وإيطاليا، وكان طبعها يُعاد حتى القرن الثامن عشر، ولم ينقطع تفسيرها في جامعة مونبلييه إلا منذ خمسين سنة"[٥].

وعن أشهر جراحي العرب يقول:" وأبو القاسم القرطبي المتوفى سنة (١١٠٧م) هو أشهر جرَّاحي العرب، وتخيل أبو القاسم كثيرًا من آلات الجراحة ورسمها في كتبه، ووصف عملية سَحْق الحصاة في المثانة على الخصوص فعُدَّت من اختراعات العصر الحاضر على غير حق. قال عنه العالم الفسيولوجيُّ الكبير (هالّر): كانت كتب أبي القاسم المصدر العام الذي استقى منه جميعُ من ظهر مَن الجراحين بعد القرنِ الرابعَ عشرَ.

والكتاب الكبير الذي دَرَس أبو القاسم فيه أمور الجراحة ينقسم إلى ثلاثة أبواب: فالباب الأول في مسائل الكي، والباب الثاني في العمليات التي تحتاج إلى المِبْضَع وفي جراحة الأسنان والعيون والفتق والولادة وإخراج الحصاة، والباب الثالث في الكسر والانخلاع، وعلى ما في هذا الكتاب من ضعف في التقسيم نرى ما فيه من المعارف العملية دقيقًا جدًا. وطُبعت الترجمة اللاتينية الأولى لكتاب أبي القاسم في الجراحة سنة (١٤٩٧م)، والطبعة الأخيرة لهذا الكتاب حديثة جدًا، أي تمت سنة (١٨٦١م)"[٦].

٢ ـ علم الصحة عند المسلمين: يقول: "لم يجهل العربُ أهميةَ حفظ الصحة، وكان العرب يعرفون جيدًا أن علم الصحة يُعلِّمنا طرق الوقاية من الأمراض التي لا يستطيع الطب شفاءها، وكانت مناهجهم الصحية طيبةً منذ القديم، وما أَمَرَ به القرآن من الوضوء، والامتناع عن شرب الخمر، ثم ما صار عليه أبناء البلاد الحارَّة من تفضيل الطعام النباتي على الطعام الحيواني غايةٌ في الحكمة، وليس فيما نُسِب إلى النبيّ من الوصايا الصحية ما يُنْتَقَد ... ويظهر أن مشافيَ العرب التي أُنشئت فيما مضى أفضل صحيًا من مشافينا الحديثة؛ فقد كانت واسعةً ذات هواء كثير وماء غزير، ولمَّا عُهِد إلى الرازي في اختيار أفضل حي في بغداد لإقامة مشفًى عليه التجأ إلى طريقةٍ لا يُنكرها عليه أصحاب نظرية الميكروب الحديثة، وذلك أنه علَّق قطعة لحمٍ في كل حي من أحياء العاصمة، وأعلن أن أصلح حيٍّ يقام عليه المشفى هو الحي الذي يتأخَّر فيه فساد قطعة اللحم المعلَّقة عن الأحياء الأخرى، وكانت مشافي العرب، كمشافي أوربة في الوقت الحاضر، ملاجئَ للمرضى وأماكن لدراسة الطلاب، وكان الطلاب يَتَلقَّون دروسهم في فُرُش المرضى أكثر مما يتلقَّونها

(١) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص٥٠٣، وما يعدها.
(٢) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص٥٠٥.
(٣) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص٥٠٥.
(٤) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص٥٠٥.
(٥) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص٥٠٦.
(٦) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص٥٠٦.

في الكتب، ولم تُقَلِّدهم جامعات أوربة في القرون الوسطى إلا قليلًا"[١].

٣ ـ تقدم المسلمين في علم الطب: يقول: "إن أهم تقدم للعرب في عالم الطب هو ما كان في الجراحة ووصف الأمراض وأنواع الأدوية والصيدلة، وظهرت للعرب عدةُ طرق يعود الطب الحديث إلى بعضها بعد إهمالها قرونًا كثيرة كاستعمال الماء البارد في معالجة حُمَّى التيفويد، والطبُّ مَدِين للعرب بعقاقيرَ كثيرةٍ كالسَّلِيخة والسنا المكِّيّ والرَّاوَنْد والتمر الهندي وجوز القَيء والقِرمز والكافور والكحول ... وما إلى ذلك، وهو مدين لهم بفن الصيدلة، وبكثير من المستحضرات التي لا تزال تُستعمل كالأشربة واللُّعُوق واللزقات والمراهم والدهان والمياه المقطرة ... إلخ، والطب مدين لهم، كذلك، بطرق طريفة في المداواة عاد إليها على أنها اكتشافاتٌ حديثةٌ بعد أن نُسِيت زمنًا طويلًا، ومنها طريقة إمصاص النبات بعضَ الأدوية كما صنع ابنُ زُهْر الذي كان يعالج المرضى المصابين بالقبض بإطعامهم عنبًا أشُرِبَ من بعض المُسْهِلَات، وعلم الجراحة مدين للعرب، أيضًا، بكثير من مبتكراته الأساسية، وظلت كتبهم فيه مرجعًا للدراسة في كليات الطبِّ إلى وقت قريب جدًّا، ومن ذلك أن العرب كانوا يَعرِفون في القرن الحادي عشر من الميلاد معالجةَ غِشاوة العين بخفض العدسة أو إخراجها، وكانوا يعرفون عملية تفتيت الحَصاة التي وصفها أبو القاسم بوضوح، وكانوا يعرفون صبَّ الماء البارد لقطع النزف، وكانوا يعرفون الكاويات والفتائل إلخ، وكانوا يعرفون المُرقِد الذي ظُنَّ أنه من مبتكرات العصر الحاضر، وذلك باستعمال الزُّؤان لتنويم المريض قبل العمليات المؤلمة، حتى يَفْقِد وعيه وحواسه"[٢].

• المبحث الثالث: جهود غوستاف لوبون في الدفاع عن الإسلام

لقد أُثيرت شبهات حول الإسلام، ومن هذا القبيل شبهة انتشار الإسلام بحد السيف، وكذلك شبهات ومزاعم أثيرت حول تعدد الزوجات ومكانة المرأة في الإسلام وغير ذلك ... إلخ. والحقيقة أنه عندما ينهض أحد علماء الإسلام بنقض الشبهات المثارة حول الإسلام وتفنيدها ودحضها فهذا هو الأصل وهو الطبيعي المعتاد في مثل تلك الأمور أن يقوم أبناء الإسلام بالدفاع عنه، أمَّا إذا قام بواجب الدفاع عن الإسلام عالم غربي غير مسلم فهذا يعد شهادة ينبغي أن تُبرز ويُسلط الضوء عليها ويُهتم بها ويُلتفت إليها ويستفاد منها وأن توظف التوظيف الأمثل، فالحق ما شهدت به الأعداء، ولقد قام العلامة لوبون في هذا الجانب بجهد مشكور ينبغي أن يشاد به وينبغي أن يذكر فيشكر؛ حيث إنه من القلائل من الكتاب الغربيين الذين لم يخضعوا للموروثات والأضاليل والمزاعم والمفتريات التي يرتشفها علماء الغرب الذين يكتبون عن الإسلام مع حليب أمهاتهم، ومن الشبهات التي فندها ودحضها ما يأتي:

أولاً: شبهة انتشار الإسلام بحد السيف وتفنيدها:

لقد فَّند المستشرق الفرنسي الدكتور غوستاف لوبون شبهة أن الإسلام انتشر بحد السيف وبالعنف وبالقوة وبقهر الشعوب التي فتح المسلمون بلادها، ، وفيما يأتي ذكر لبعض أقواله في ذلك من خلال كتابه حضارة العرب:

١ ـ يقول: "وقضى أعداء الإسلام من المؤرخين العجب من سرعة انتشار القرآن العظيمة فعزَوها إلى ما زعموه من تَحَلُّل مُحَمَّد وبطشه، ويسهل علينا أن نثبت أن هذه المزاعم لا تقوم على أساس، إن مَن يقرأ القرآن يجد فيه ما في الأديان الأخرى من الصرامة، وما قيل من دليل حول تَحَلُّل مُحَمَّد نقضَه العلامة الفيلسوف بيلُ منذ زمن طويل"[٣].

٢ ـ ويقول: " وسيرى القارئ حين نبحث في فتوح العرب وأسباب انتصاراتهم أن القوة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن، فقد ترك العربُ المغلوبين أحراراً في أديانهم، فإذا حدث أن اعتنق بعض الأقوام النصرانية الإسلام، واتخذوا العربية لغة لهم، فذلك لما رأوا من عدل العرب الغالبين ما لم يروا مثله من سادتهم السابقين، ولما كان الإسلام عليه من السهولة التي لم يعرفوها من قبل. وقد أثبت التاريخ أن الأديان لم تفرض بالقوة، فلما قهر النصارى عرب الأندلس فضل هؤلاء القتل والطرد عن آخرهم على ترك الإسلام. ولم ينتشر القرآن بالسيف إذن بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التي قهرت العرب مؤخرا كالترك والمغول، وانتشرت دعوة القرآن في الهند والصين وزادت معها أعداد المعتنقين للإسلام يوما بعد يوم[٤].

٣ ـ ويقول أيضاً قد " رأينا من آي القرآن التي ذكرناها آنفا أن مسامحة مُحَمَّد لليهود والنصارى كانت عظيمة إلى الغاية، وأنه لم يَقُلْ بمثلها مؤسسو الأديان التي ظهرت قبله كاليهودية والنصرانية على الخصوص، وسنرى كيف سار خلفاؤه على سنته، وقد اعترف بذلك التسامح بعض علماء أوربا ... الذى أمعنوا النظر في تاريخ العرب ... وبهذا يكون رأينا فيه هذه المسألة ليس خاصا بنا[٥].

٤ ـ ويقول: قال روبرتسون في كتابه: " تاريخ شارلكن:" إن المسلمين وحدهم الذين جمعوا بين الغيرة لديهم وروح التسامح نحو

(١) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص٥٠٨.
(٢) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص٥٠٨.
(٣) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص١٣٣.
(٤) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص١٣٤، وما بعدها.
(٥) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، (هامش ٢٣)، ص ١٣٧. ١٣٧.

اتباع الأديان الأخرى، وإنهم مع امتشاقهم الحسام نشراً لدينهم، تركوا مَنْ لم يرغبوا فيه أحراراً في التمسك بتعاليمهم الدينية "[١].

٥ ـ ويقول: قال ميشود: "إن القرآن الذى أمر بالجهاد متسامح نحو اتباع الأديان الأخرى وقد أعفى البطارقة و الرهبان وخدمهم من الضرائب، وحرّم مُحَمَّد قتل الرهبان لعكوفهم على العبادات، ولم يمس عمر النصارى بسوء حين فتح القدس، فذبح الصليبيون المسلمين وحرقوا اليهود بلا رحمة وقتما دخلوها ... فمن المؤسف أن تقتبس الشعوب النصرانية من المسلمين التسامح الذى هو آية الإحسان بين الأمم واحترام عقائد الآخرين وعدم فرض أي معتقد عليهم بالقوة "[٢].

إن هذه النصوص تمثل شهادات لعلماء غربيين منصفين، نقلها عنهم وتبناها غوستاف لوبون، والحق ما شهدت به الأعداء، فكيف يزعم أعداء الإسلام، من منصرين ومستشرقين وعلمانيين ومن دار في فلكهم، أن المسلمين نشروا دينهم بالقوة والقهر وبحد السيف، وكان الجهاد عندهم في سبيل الحصول على مغانم وأموال وسلب ونهب وقتل وتشريد وإثارة الرعب بين الناس.

٦ ـ ويقول أيضاً: إن الخلفاء قد عرفوا "كيف يحجمون عن حمل أحد بالقوة على ترك دينه وعرفوا كيف يبتعدون عن إعمال السيف فيمن لم يسلم وأعلنوا في كلِّ مكان أنهم يحترمون عقائد الشعوب وعُرْفها وعاداتها، مكتفين بأخذهم، في مقابل حمايتهم، جزية زهيدة تقلُّ عما كانت تدفعه إلى سادتها السابقين من الضرائب .. ويثبت لنا سلوك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في مدينة القدس مقدار الرفق العظيم الذى كان يعاملُ به العرب الفاتحون الأمم المغلوبة .. ولم يكن سلوك عمرو بن العاص بمصر أقل رفقاً من ذلك فقد عرضَ على أهل مصر حرية دينية وعدلاً مطلقا واحتراماً للأموال وجزية سنوية ثابتة لا تزيد على خمسه عشر فرنكا عن كلِّ رأس بدلا من ضرائب قياصرة الروم الباهظة فرضى المصريون طائعين شاكرين دافعين للجزية سلفا وقد بالغ العرب في الوقوف عند حد هذه الشروط والتقيد بها فأحبهم المصريون الذين ذاقوا الأمرَّين من ظلم عمال قياصرة القسطنطينية النصارى، وأقبلوا على اعتناق دين العرب ولغتهم أيما إقبال، ونتائجٌ مثلُ هذه لا تُنَالُ بالقوة .. ولم يظفر بمثلها مَنْ ملك مصر من الفاتحين قبل العرب"[٣].

٧ ـ وعن آداب القتال في الإسلام وشروطه: يقول: "وكان العرب، قبل أن يَسْعَوا إلى فتح بلد، يرسلون رُسُلًا حاملين إليه شروطًا للوفاق، وتكاد هذه الشروط تكون مماثلةً للشروط التي عرضها عمرو بن العاص على أهالي غزة حين حصاره لها في السنة السابعة عشرة من الهجرة، وللشروط التي عُرِضت على المصريين وأهل فارس، وتلك الشروط التي عرضها عمرو بن العاص هي: "أمرنا صاحبنا أن نقاتلكم إلى أن تكونوا في ديننا فتكونوا إخوتنا، ويلزمكم ما يلزمنا فلا نتعرَّض إليكم، فإن أبيتم أعطيتم الجزية في كلِّ عام أبدًا ما بقينا وبقيتم، ونقاتل عنكم من ناوأكم إن تعرَّض إليكم في وجهٍ من الوجوه، ويكون لكم عهدٌ علينا، فإن أبيتم فليس بيننا وبينكم إلا السيف فنقاتلكم حتى تفيئوا إلى أمر الله"[٤].

٨ ـ هناك أمم اعتنقت الإسلام بدون تسيير جيوش، كجنوب شرق آسيا والصين والهند[٥]، وهناك أمم استعصت على الغزاة والفاتحين ردحاً من الزمن ولما فتحها المسلمون ما وسعهم إلا اعتناق الإسلام والدخول فيه في أقل من قرن من الزمان، ومن الأدلة على ذلك مصر، يقول:" ومن ذلك أن ظلَّت مصر الثابتة في زمن البطالمة وفي زمن الرومان وفيَّةً لماضيها، وكان ما تعلم من اعتناق الغالبين لديانة المغلوبين ولغتهم وطِراز بنائهم فيها، وكان ما تَعْرِف من إقامة البطالمة لمبانيهم التي رمَّمَها القياصرة، على الطراز الفرعوني. وما عجز الأغارقة والفرس والرومان عنه في الشرق قَدَرَ عليه العرب بسرعة ومن غير إكراه، ومن ذلك أن مصر، التي كان يلوح أنها أصعب أقطار العالم إذعانًا للمؤثرات الأجنبية، نسيت، في أقل من قرن واحد مرَّ على افتتاح عمرو بن العاص لها، ماضي حضارتها الذي دام نحو سبعة آلاف سنة معتنقة دينًا جديدًا ولغة جديدة وفنًّا جديدًا اعتناقًا متينًا دام بعد تواري الأمة التي حَمَلتها عليه"[٦].

٩ ـ إن الذي انتشر بحد السيف والعنف والقوة والقهر هو النصرانية وليس الإسلام، ويضرب مثالاً لذلك بأهل مصر ـ حفظها الله وسائر بلاد المسلمين ـ يقول: "ولم يُغيِّر المصريون دينهم سوى مرة واحدة قبل العرب، وذلك حين خرَّب قياصرة القسطنطينية بلاد مصر بتحطيمهم جميع آثارها أو تشويهها وجعلهم القتل عقوبة من يخالف حظر عبادة آلهتها الأقدمين، وهكذا عانى المصريون دينًا جديدًا فُرِض عليهم بالقوة أكثر من اعتناقهم له، وما كان من تهافت المصريين على نَبْذِ النصرانية ودخولهم في الإسلام يُثبت درجة ضَعف تأثير النصرانية فيهم. وما وُفِّق العرب له في مصر من التأثير البالغ اتفق لهم مثلُه في كل بلد خَفَقَت فوقه رايتهم كإفريقية وسورية وفارس ... إلخ، وبلغ نفوذُهم بلادَ الهند التي لم يدخلوها إلا عابري سبيل، وبلغ بلادَ الصين التي لم يزوروها إلا تجارًا"[٧].

(١) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، (هامش ٢٣) ص ١٣٧.
(٢) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، (هامش ٢٣) ص ١٣٧، و١٣٨.
(٣) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص ١٤٣، وما بعدها.
(٤) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص ١٤٣.
(٥) ينظر: لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص ٥٨٤.
(٦) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص ٥٨٣.
(٧) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص ٥٨٣، وما بعدها.

ويقول:" وعندما أصبحت النصرانية دين دولة القسطنطينية الرسمي تم هدم جميع تماثيل الآلهة المصرية القديمة ومعابدها وجميع ما يُذكِّر الناس بها، واكتفى بتشويه كتابات المعابد المصرية التي كانت من المتانة بحيث لم يَقدِر على هدمها بسهولة، وكان ذلك سنة (٣٨٩م).

ولا تزال مصر ملأى بأنقاض ذلك التخريب الذي أملاه التعصب، وتُعدُّ تلك الأعمال من أفظع ما عرفه التاريخ من أثر عدم التسامح والبربرية، ومن دواعي الأسف أن كان من بواكير أعمال ناشري الدين الجديد، الذي حل محل دين الأغارقة والرومان، هدمُ المباني التي احترمها أكثر الفاتحين منذ خمسة آلاف سنة ... وأُكرِهت مصر على انتحال النصرانية، وهبطت بذلك إلى دَرَكات الانحطاط مقدارًا فمقدارًا إلى أن جاء العرب. وكان قيصر الروم هرقلُ سيد مصر حينما حاول العرب فتح مصر بقيادة أحد رجال الخليفة الثاني، وكان أشد البؤس والشقاء مما تعانيه مصر التي غَدَت ميدان قتالٍ للمذاهب النصرانية، وكانت هذه المذاهب تَكثُر في ذلك الزمن وتتلاعن وتتقاتل.

وكانت مصر التي أكلتها الانقسامات الدينية، ونهكتها مظالم الحاكم تحقد أشد الحقد على سادتها الكثيبين، وكانت تَعُدَّ من يُحَرِّرونها من أيدي قياصرة القسطنطينية مُنقِذين، فحُفظ هذا الشأن للعرب"[١].

١٠ ـ تسامح المسلمين مع أهل مصر إبان الفتح الإسلامي لها: وعن هذا الموضوع يقول: "وقد ذكرنا ما كان عليه عمرو بن العاص من الحِذق والمهارة نحوَ سكان مصر، فهو لم يَتَعَرض إلى ديانتهم، ولا إلى نُظُمهم ولا عاداتهم، ولم يطالبهم بغير جزية سنوية قدرُها خمسةَ عشرَ فرنكًا عن كل رأس مقابل حمايتهم، فرضي المصريون بذلك شاكرين، ولم يَندَّ سوى الروم، أي الجنود والموظفين ورجال الدين الذين أَبَوا أن يخضعوا للغُزاة فالتجأوا إلى الإسكندرية، فحاصرها العرب حصارًا دام أربعة عشر شهرًا، وقُتل في أثنائه ثلاثة وعشرون ألفًا من العرب.

وكان عمرو بن العاص سمحًا رحيمًا نحو أهل الإسكندرية مع تلك الخسارة التي أُصيب بها العرب، ولم يقِسُ عليهم، وصَنَع ما يكسِب به قلوبهم، وأجابهم إلى مطالبهم، وأصلح أسدادهم وتُرَعَهم، وأنفق الأموال الطائلة على شؤونهم العامة"[٢]. "واحترم عمرو بن العاص نُظُم المصريين وعاداتهم ومعتقداتهم"[٣].

"وسار عمرو بن العاص في مصرَ على غرار عمر بن الخطاب في القدس، فشمل الديانة النصرانية بحمايته، وسمح للأقباط بأن يستمروا على اختيار بطركٍ لهم كما في الماضي، ومن تسامحه أن أذِن للنصارى في إنشاء الكنائس في المدينة الإسلامية التي أسسها"[٤].

أسسها"[٤].

ثانياً: شبهات ومزاعم مثارة حول مكانة المرأة في الإسلام ودحضها:

لقد أجاد العلامة غوستاف لوبون في عرضه لمكانة المرأة في الإسلام وتفنيده ورده على المزاعم والشبهات المثارة حولها، ومن ذلك:

١ ـ شبهة مثارة حول مكانة المرأة في الإسلام وتفنيدها:

تصوير الشبهة وتفنيده لها: إن الإسلام رفع شأن المرأة وجعلها في منزلة كريمة ومكانة رفيعة؛ غير أن أعداء الإسلام يزعمون زوراً وبهتاناً صباح مساء أن الإسلام قد ظلم المرأة ولم يعطها حقوقها ولم ينصفها، وفيما يأتي طرف من كلام غوستاف لوبون في ذلك وتفنيده لتلك الشبهة:

أ ـ حال المرأة قبل الإسلام: يقول:" كان الرجال قبل ظهور مُحَمَّد يَعُدُّون منزلة النساء متوسطة بين الأنعام والإنسان من بعض الوجوه، أي أداة للاستيلاد والخدمة، وكانوا يَعُدُّون ولادة البنات مصيبة، وشاعت عادة وأد البنات"[٥].

ويقول أيضاً:"كان الأغارقة على العموم يَعُدُّون النساء من المخلوقات المنحطة التي لا تنفع لغير دوام النسل وتدبير أمور المنزل، فإذا وضعت المرأة ولداً دميماً قضوا عليها، ومن ذلك قول مسيو تروبلونغ: كانت المرأة الولود تؤخذ من زوجها بطريق العارية؛ لتلد للوطن أولاداً من رجل آخر. وكان جميع قدماء المشترعين يُبدون مثل تلك القسوة على المرأة، ومن ذلك قول شرائع الهندوس: ليس المصير المُقَدَّر والريح والموت والجحيم والسُّم والأفاعي والنَّار أسوأ من المرأة. ولم تكن التوراة أرحم بالمرأة من شرائع الهند، ومن ذلك قول سفر الجامعة: إن المرأة أمر من الموت، وإن الصالح أمام الله ينجو منها... رجلاً واحداً بين ألف وجدتُ، أما امرأة فبين كل أولئك لم أجد[٦].ويقول" وتَعُدُّ جميع الشرائع الهندوسية واليونانية والرومانية والحديثة المرأة من فصيلة الإماء والصبيان"[٧].

وعن حال المرأة قبل الإسلام في الأمثال، يقول:" وليست أمثال مختلف الأمم أكثر اعتدالاً في شأن المرأة، فالمثل

الصيني يقول: أنصت لزوجتك ولا تصدقها، والمثل الروسي يقول: لا تجد في كل عشر نسوة غير روح واحدة،

(١) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص ٢٢٠، وما بعدها.
(٢) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص ٢٢٥.
(٣) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص ٢٢٨.
(٤) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص ٢٢٨.
(٥) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص ٤١٥.
(٦) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص ٤١٨، وما بعدها.
(٧) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص ٤٢٠.

والمثل الإيطالي يقول: المِهْمَازُ للفرس الجواد والفرس الجموح، والعصا للمرأة الصالحة والمرأة الطالحة، والمثل الإسباني يقول: احذر المرأة الفاسدة ولا تركن إلى المرأة الصالحة"[١].

ب ـ الإسلام رفع مكانة المرأة وأعلى منزلتها: يقول" كان الإسلام ذا تأثير عظيم في حال المرأة في الشرق، فقد رفع حالها الاجتماعي وشأنها رفعاً عظيماً بدلاً من خفضها والحط من شأنها خلافاً للمزاعم الأوربية المكررة على غير هدى، فالقرآن قد منح المرأة حقوقاً إرثية أحسن مما في أكثر قوانيننا الأوربية"[٢].

ج ـ ومن صور تكريم الإسلام للمرأة أن جعل لها حظاً مفروضاً في الميراث، يقول: " وتعد مبادئ المواريث التي نَصَّ عليها القرآن بالغة العدل والإنصاف، ويمكن القارئ أن يدرك هذا من الآيات التي أنقلها منه ... ويظهر من مقابلتي بينها وبين الحقوق الفرنسية والإنكليزية أن الشريعة الإسلامية مَنَحَت الزوجات، اللائي يُزعَم أن المسلمين لا يعاشرونهن بالمعروف، حقوقًا في المواريث لا تَجِدُ مثلَها في قوانيننا. جاء في القرآن: ﴿**لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ**﴾[٣]"[٤].

ج ـ تعلُّم الأوربيون من الإسلام كيفية معاملة المرأة واحترامها: يقول:" إن الأوربيين أخذوا مبادئ الفروسية وما اقتضته من احترام المرأة، والإسلام إذن، لا النصرانية، هو الذي رفع المرأة من الدرك الأسفل الذي كانت فيه، وذلك خلافاً للاعتقاد الشائع... إن رجال الإقطاع في العصور الوسطى كانوا غلاظاً نحو النساء قبل أن يتعلم النصارى من العرب أمر معاملتهن بالحسنى ... وخير دليل على ذلك: معاملة القيصر (شرلمان) لأخته؛ حيث انقض عليها في أثناء جدال، وأخذ بشعرها وضربها ضرباً مبرحاً، وكسر بقفازه الحديدي ثلاثاً من أسنانها، فلو حدث مثل هذا الجدال مع سائق عربة في الوقت الحاضر لبدا هذا السائق أرق منه لا ريب[٥]."

ونستطيع أن نكرر، إذن، قولنا: إن الإسلام هو الذي رفع شأن المرأة كثيراً، وقد سبقنا إلى سبقنا إلى هذا الرأي أمثال: (كوسان دوبرسفال)، ثم (مسيو بارتلمي سنت هيلر)"[٦].

٢ـ شبهة مثارة حول تعدد الزوجات في الإسلام ودحضها: فمن خلال حديث المستشرق غوستاف لوبون حول تعدد الزوجات في الإسلام، ودفاعه عن هذا الأمر وأنه ليس فيه إهانة للمرأة المسلمة، قد خلص إلى "أن مبدأ تعدد الزوجات في الإسلام أمر طيب، وأن حُب الأسرة وحسن الأدب وجميل الطبائع أكثر نمواً في الأمم القائلة به مما في غيرها على العموم، وأن الإسلام حسَّن حال المرأة كثيراً، وأنه أول دين رفع شأنها، وأن المرأة في الشرق أكثرُ احتراماً وثقافةً وسعادةً منها في أوربة على العموم تقريباً"[٧]، فالذي رفع شأن المرأة هو القرآن، وأن" نقصان شأنها حدث خلافاً للقرآن، لا بسبب القرآن على كل حال"[٨].

وفيما يأتي ذكر نص الشبهة ودحضه لها: يقول لوبون مصوراً تلك الشبهة: "ولا نذكر نظاماً أنحى الأوربيون عليه باللائمة كمبدأ تعدد الزوجات، كما لا نذكر نظاماً أخطأ الأوربيون في إدراكه كخطئهم في هذا الموضوع.

وذلك أن أكثر مؤرخي أوربة اتزاناً يرون أن مبدأ تعدد الزوجات حجرُ الزاوية في الإسلام، وأنه سبب انتشار القرآن، وأنه علة انحطاط الشرقيين، ونشأت عن هذه المزاعم الغريبة، أصوات سُخط؛ رحمةً بأولئك البائسات المكدسات في دوائر الحريم، واللائي يرقبهن خصيان غلاظ ، ويقتلن حين يغضب عليهن سادتهن"[٩].

هذا مجمل نص الشبهة المثارة حول تعدد الزوجات في الإسلام، وفيما يأتي ذكر تفنيد العلامة غوستاف لوبون لها، على النحو التالي:

أ ـ تعدد الزوجات فيه احترام للمرأة المسلمة: يقول معقباً على النص السابق" ذلك الوصف مخالف للحق، وأرجو أن يثبت عند القارئ بعد أن يقرأ هذا الفصل، بعد أن يطرح عنه أوهامه الأوربية جانباً، أن مبدأ تعدد الزوجات الشرقي نظام طيب يرفع المستوى الأخلاقي في الأمم التي تقول به، ويزيد الأسرة ارتباطاً، ويمنح المرأة احتراماً وسعادةً لا تراهما في أوربة[١٠].

ب ـ الإسلام أباح تعدد الزوجات وحرم العشيقات والخليلات: يقول: "أباح القرآن للمسلم أن يتزوج أربع نسوة من الحرائر، وما شاء من الإماء، ويعد أولاد الإماء شرعيين كأولاد الحرائر... والحق أن الطبائع في الشرق صارمة، وأن من النادر أن ترى رجلاً يتملق زوجة رجل آخر لمخالفة ذلك للطبيعة عند الشرقيين مع عده أمراً طبيعياً لدى الأوربيين.(فلا ترى هنالك، كما قال الدكتور: (إيزنبرت)، مثل ما يكدر صفو الحياة الزوجية في أوربة من الخيانة

(١) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص ٤١٩، وما بعدها.
(٢) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص ٤١٤، وما بعدها بتصرف.
(٣) سورة النساء الآية:٧.
(٤) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص ٤٠٢، وما بعدها بتصرف.
(٥) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص ٤١٦.
(٦) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص ٤١٨، باختصار وتصرف.
(٧) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص ٤١٧.
(٨) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص ٤١٨.
(٩) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص ١١١.
(١٠) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص ١١١.

التي هي أعظم فساداً للأخلاق من تعدد الزوجات على ما يحتمل)"[١].

ج ـ مبدأ تعدد الزوجات لم ينفرد به الإسلام وإنما كان موجوداً قبله عند كل الأمم: يقول: إن مبدأ تعدد الزوجات خاصاً بالإسلام، فقد عرفه اليهود والفرس والعرب وغيرهم من أمم الشرق قبل مُحَمَّد، ولم ترَ الأمم التي اعتنقت الإسلام فيه غُنماً جديداً إذن، وبما أن تركيب المرأة الجسماني وأمومتها وأمراضها، إلخ، مما يُكرهها على الابتعاد عن زوجها في الغالب؛ ولذا كان مبدأ تعدد الزوجات ضربة لازب[٢].

ج ـ أسباب تعدد الزوجات في الإسلام كما يصورها غوستاف لوبون[٣]:

ـ الزواج المبكر: فالشرقيون يتزوجن في سن مبكرة؛ ولذا فقد تضعف زوجته وتنشغل بأمور البيت وتربية الأولاد، والزوج يكون في أوج قوته مما يجعله يحتاج إلى أن يتزوج بأخرى.

ـ حب الشرقيين لزيادة النسل وكثرته: فالشرقي لما يتزوج وتنجب زوجته ذريةً ذكوراً وإناثاً فإنه يرغب في المزيد من الأولاد والذرية، وإذا كانت عقيماً فإنه يتزوج بأخرى ليكون له نسل وذرية.

ـ تعدد الزوجات في الإسلام لا يجعل ظرفاً يتأذى؛ لأنه لا يؤدي إلى التحاسد والتباغض بين الزوجات؛ لأنه مبدأ مشروط بالعدل بين الزوجات، وبالتالي كل زوجة تحصل على احتياجاتها الضرورية والحاجية والتحسينية من أمور حياته؛ ولذا نراها في بعض المجتمعات تحض زوجها على التزوج بأخرى بل تختار له العروس في بعض الأحيان.

ـ تعدد الزوجات أفضل بكثير من تعدد الخليلات والعشيقات.

ـ تعدد الزوجات لم ينفرد به الإسلام، وإنما هو موجود عند كل الأمم قبل الإسلام، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك آنفاً.

ثالثاً: شبهة مثارة حول الرق في الإسلام: وعن مكانة الرقيق في الإسلام يقول: "إن الرق عند المسلمين غيرُه عند

النصارى فيما مضى، وأن حال الأرقاء، في الشرق أفضل من حال الخدم في أوربة، فالأرقاء في الشرق يؤلِّفون جزءًا من الأسُر، ويستطيعون الزواج ببنات سادتهم أحيانًا كما رأينا ذلك سابقًا، ويقدِرون أن يَتَسَنَّموا أعلى الرُّتب، وفي الشرق لا يرون في الرق عارًا، والرقيق فيه أكثر صلةً بسيده من صلة الأجير في بلادنا"[٤].

[٤].

رابعاً: شبهة حول فضل الحضارة الإسلامية على الحضارة الغربية:

عرض العلامة غوستاف لوبون لشبهة يثيرها الكتاب الغربيون حول الحضارة الإسلامية وقام بتفنيدها، وهذه الشبهة مفادها "أن اليونان واللاتين وحدهم منبعُ العلوم والآداب في الزمن الماضي أدركنا، بسهولةٍ سرَّ جمودنا العامِّ لتأثير العرب العظيم في تاريخ حضارة أوربة"[٥].وقد فند العلامة غوستاف لوبون هذه الشبهة بأمور منها:

أ ـ بيان سبب حقد الأوربيين على الإسلام وحضارته.

ب ـ الكتاب الغربيون يعانون من انفصام الشخصية.

ج ـ عاش الغرب مدة طويلة من الزمن يعاني من فوبيا الإسلام.

د ـ الصورة التي يعرفها الغرب عن الإسلام صورة مشوهة، ناقصة؛ فالإسلام ظل لقرون كثيرة أكبر عدو للغرب.

هـ ـ عرض غوستاف لوبون لنماذج من تناقضات المستشرق الفرنسي أرنست رينان حول الإسلام؛ حيث إنه كان يقول الشيء ونقيضه في آن واحد.

وحول هذه الأمور يقول: "وقد يسأل القارئ بعد ما تقدم: لِمَ يُنكِر تأثيرَ العرب علماءُ الوقت الحاضر الذين يَضَعون مبدأ حرية الفكر فوق كل اعتبار ديني كما يلوح؟ لا أرى غير جواب واحد عن هذا السؤال الذي أسأل نفسي به أيضًا وهو أن استقلالنا الفكري لم يكن في غير الظواهر بالحقيقة، وأننا لسنا من أحرار الفكر في بعض الموضوعات كما نريد.

فالمرء عندنا ذو شخصيتين: الشخصية العصرية التي كَوَّنَتها الدراسات الخاصة والبيئة الخلقية والثقافية، والشخصية القديمة غير الشاعرة التي جَمُدَت وتحجرت بفعل الأجداد وكانت خلاصةً لماضٍ طويل، والشخصية غير الشاعرة وحدها، ووحدها فقط، هي التي تتكلم عند أكثر الناس وتُمسِك فيهم المعتقدات نفسَها مساةً بأسماء مختلفة، وتملي عليهم آراءهم، فيلوح ما تُمليه عليهم من الآراء حُرًّا في الظاهر فيُحترم.

والحق أن أتباع مُحَمَّد ظلوا أشدَّ مَن عرفته أوربة من الأعداء إرهابًا عدة قرون، وأنهم، عندما كانوا لا يُرعِدُوننا بأسلحتهم، كما في زمن شارل مارتل والحروب الصليبية، أو يهددون أوربة بعد فتح

(١) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص ٤٢١، وما بعدها.
(٢) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص ١١١، وما بعدها بتصرف واختصار.
(٣) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص ١١١: ١١٤، ٤٢٢ بتصرف واختصار.
(٤) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص ٣٨٦، وما بعدها.
(٥) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص ٦٠٠، وما بعدها.

القسطنطينية، كانوا يُذلُّوننا بأفضلية حضارتهم الساحقة، وأننا لم نتحرَّر من نفوذهم إلا بالأمس. وتراكمت مبتسراتنا الموروثة ضد الإسلام والمسلمين في قرون كثيرة، وصارت جزءًا من مزاجنا، وأضحت طبيعةً متأصلةً فينا تأصُّلَ حقد اليهود على النصارى الخفي أحيانًا والعميق دائمًا، وإذا أضفنا إلى مبتسراتنا الموروثة ضد المسلمين مُبْتَسرَنا الموروث الذي زاد مع القرون بفعل ثقافتنا المدرسية البغيضة القائلة :إن اليونان واللاتين وحدهم منبعُ العلوم والآداب في الزمن الماضي أدركنا، بسهولةٍ سرَّ جحودنا العامّ لتأثير العرب العظيم في تاريخ حضارة أوربة، ويتراءى لبعض الفُضَلاء أن من العار أن يُرى أن أوربة النصرانية مدينةٌ لأولئك الكافرين في خروجها من دور التوحش، فعارٌ ظاهر كهذا لا يُقبل"[(١)].

ويقول عن تناقض المستشرق أرنست رينان في هذا الشأن: "حينما تلتقي المبتسرات الموروثة والثقافة في العالم الفاضل، ولا يدرى على أيهما يعتمد في وزن الأمور، يتجلى فيه ما يجتمع في شخص واحد من الذاتية القديمة التي هي وليدة الماضي، والذاتية العصرية التي هي وليدة المشاهدة الشخصية، فيصدر عنه من الآراء المتناقضة ما يستوقف النظر، ومن ذلك التناقض المثال البارز الذي يجده القارئ في الخطبة التي ألقاها الكاتب اللبق والعالم الفاضل مسيو رينان في السوربون عن الإسلام، والتي أراد مسيو رينان أن يثبت فيها عجز العرب، ولكن ترهاته كانت تنقض بما كان يجيء في الصفحة التي تليها، فبعد أن قال مسيو رينان مثلًا :إن تقدم العلوم مدين للعرب وحدهم مدة ستمائة سنة، وذكر أن عدم التسامح مما لم يعرفه الإسلام إلا بعد أن حلت محل العرب شعوب متأخرة كالبربر والترك، عاد فادَّعى أن الإسلام اضطهد العلم والفلسفة وقضى على العقل في البلاد التي دانت له. بيد أن ناقدًا بصيرًا كمسيو رينان لا يستطيع أن ينام مدة طويلة على مثل ذلك الزعم المناقض لأوضح ما رواه التاريخ، فذهبت عنه مبتسراته الموروثة ثانية، ورجع يعترف بتأثير العرب في القرون الوسطى، ويشهد بتقدم العلوم في بلاد الأندلس أيام سلطانهم.

ومن دواعي الأسف أن تغلبت على رينان مبتسراته غير الشاعرة بعد ذلك سريعًا، فصار يزعم أن علماء العرب ليسوا عربًا؛ من أبناء سمرقند وقرطبة وأشبيلية.. الخ، مع أن الواقع أن تلك البلاد مما ملكه العرب، وأن الدم العربي ممَّا جرى في عروق أبنائها، وأن علوم العرب مما كان لها نصيب منه زمنًا طويلًا، وأنه إذا أُبيح لأحد أن يجادل في الآثار التي صدرت عن مدارس العرب، كان ذلك من قبيل إباحته لنفسه أن يجادل في مؤلفات علماء فرنسة بحجة أنهم من الشعوب الكثيرة التي تألف من مجموعها الشعب الفرنسي كالنورمان والسلت والأكيتان إلخ. ثم يظهر الكاتب الفاضل مسيو رينان أسيفًا، أحيانًا، على سوء رأيه في العرب، ويصل إلى النتيجة غير المنتظرة الآتية التي تنم، كذلك،على ما بين ذاتية الإنسان القديمة وذاتيته العصرية من التنازع، ويأسف على أنه ليس من أتباع النبي، فيقول:« إنني لم أدخل مسجدًا من غير أن أهتز خاشعًا، أي من غير أن أشعر بشيء من الحسرة على أنني لست مسلمًا»[(٢)].

خامساً: شبهة مثارة حول حريق مكتبة الإسكندرية:

يقول:" وأما إحراق مكتبة الإسكندرية المزعوم؛ فمن الأعمال الهمجية التي تأباها عادات العرب، والتي تجعل المرء يسأل :كيف جازَت هذه القصة على بعض العلماء الأعلام زمنًا طويلًا؟ وهذه القصة دُحضت في زماننا فلا نرى أن نعود إلى البحث فيها، ولا شيء أسهل من أن نُثبت بما لدينا من الأدلة الواضحة أن النصارى هم الذين أحرقوا كتب المشركين في الإسكندرية قبل الفتح العربي بعناية كالتي هدموا بها التماثيل ولم يبقَ منها ما يُحرق"[(٣)].

سادساً: شبهة وردها حول أثر اللغة العربية في اللغات الأخرى:

يقول غوستاف لوبون: "وزعم مؤلف أحد المعجمات الاشتقاقية الفرنسية الذي أُلِّف حديثًا أن إقامة العرب بجنوب فرنسة لم تُسفر عن أثر، لا في اللهجات، ولا في اللغة، فقلةُ قيمة هذا الرأي تبدو مما قلناه آنفًا، ومن العجيب أن

يكرر بعض المثقفين مِثل هذا الزعم"[(٤)].

وناقش لوبون هذه الشبهة ببيان جملة من الأمور منها:

أ ـ اللغة العربية لغة غنية بمفرداتها وتراكيبها: "واللغة العربية غنية جدًّا، وزاد غناها بما أضيف إليها، دائمًا، من التعابير الجديدة التي تسربت فيها من اللهجات التي اتصلت بها، وانظر إلى المعجم الذي ألَّفه ابن سِيده المتوفَّ سنة (١٠٦٥م) تجده مشتملًا على عشرين مجلدًا"[(٥)].

ب ـ أثر اللغة العربية في اللغات الحية: لقد تلقف أصحاب البلاد المفتوحة اللغة العربية، وكانت لغة العلم لأهل البلاد التي فتحها المسلمون لعدة قرون، يقول لوبون:" ولقد قَدَرَ العربُ، على فَرض لغتهم عليهم، ولما صارت اللغة العربية عامةً في جميع البلاد التي استولَوا عليها حلَّت محلَّ ما كان فيها من اللغات، كالسريانية

(١) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص ٦٠٠، وما بعدها.

(٢) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص ٦٠١، وما بعدها، هامش(٢).

(٣) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص ٤٢٥.

(٤) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص٤٥٨.

(٥) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص٤٥٨.

واليونانية والقبطية والبربرية ، كما كان للغة العربية أثر عميق في اللغات اللاتينية، وقد ألَّف دوزي وأَنْجِلْمَن مُعجمًا في الكلمات الإسبانية والبرتغالية المشتقَّة من اللغة العربية. وتركَت لغة العرب أثرًا مهمًّا في فرنسة نفسِها، وذكر سيديُّو، والحق ما ذكر، «أن اللهجات السائدة لولاية أوڤرن وولاية ليموزان الفرنسيتين محشوَّةٌ بالكلمات العربية، وأن أسماء الأعلام فيها ذاتُ مسحة عربية»"[(١)].

ج ـ وجود كلمات ومصطلحات عربية في اللغة الفرنسة والإيطالية، كالمصطلحات المتعلقة بالصيد والمصطلحات البحرية وألقاب الضباط، واصطلاحات العلوم التي اقتبسوها من العرب كعلم الفلك والرياضيات والكيمياء والتاريخ الطبيعي والطب وغيرها[(٢)].

• المبحث الرابع: دحض شبهات مثارة حول الإسلام في كتاب حضارة العرب:

قلَّ أن نجد في المستشرقين منصفاً، كالعلامة غوستاف لوبون، ولكنه مع هذا وقع في أخطاء ما كان لمثله أن يتورط فيها، ومن ذلك، ووجد في كتابه حضارة العرب بعض الشبهات المثارة حول الإسلام ومنها: زعمه أن رسول الله مُحَمَّداً ﷺ تعلم علوم التوراة من بحيرا الراهب، وزعمه بأن النبيﷺ كان قاسياً على بني قريظة، وزعمه بأن النبي ﷺ قد غزا يهود خيبر لمجرد الترويح عن أصحابه فقط، هذه بعض الشبهات المبثوثة في طيات كتابه وفيما يأتي ذكرها ونقضها بشيء من الإيجاز بما يقتضيه المقام:

أولاً: شبهة مثارة في كتاب: "حضارة العرب" حول نبوة رسول الله مُحَمَّد ﷺ ودحضها:

١ - عرض الشبهة: يقول المستشرق غوستاف لوبون حول ذلك الأمر:" وتقول القصة إن مُحَمَّداً سافر مع عمه إلى سورية مرةً، وتعرف في بُصرى براهب نسطوري في دير نصراني، فتلقى منه علم التوراة"[(٣)].

٢ - نقض الشبهة ودحضها من خلال ما ورد في المصادر الإسلامية:

لقد تورط غوستاف لوبون، وما كان ينبغي له أن يفعل؛ لأن قضية تعلم النبي ﷺ من بحيرا أو غيره قصة واهية لا قيمة لها في ميزان البحث العلمي؛ إذ من المعلوم أن النبي ﷺ كان أميًّا، لا يقرأ ولا يكتب، قال الله تعالى: {وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ} (العنكبوت: ٤٨)، والمعنى: "ولو كنت من قبل أن يُوحَى إليك تقرأ الكتاب، أو تخطه بيمينك، لشكّ المبطلون في أمرك بسبب ذلك ... وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كان نبيّ الله ﷺ أمّيا؛ لا يقرأ شيئا ولا يكتب[(٤)]، وعن قتادة، قال: كان نبيّ الله لا يقرأ كتابا قبله، ولا يخطه بيمينه، قال: كان أُمّيا، والأمّي: الذي لا يكتب، وعن مجاهد قال: كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن النبيّ ﷺ لا يخطّ بيمينه، ولا يقرأ كتابا، فنزلت هذه الآية"[(٥)].

ويقول الطاهر ابن عاشور: "هذا استدلال بصفة الأمية المعروف بها الرسول ﷺ ودلالتها على أنه موحى إليه من الله أعظم دلالة، ومعنى: (ما كنت تتلوا من قبله من كتاب) أنك لم تكن تقرأ كتاباً حتى يقول أحد:

هذا القرآن الذي جاء به هو مما كان يتلوه من قبل، (ولا تخطه)؛ أي: لا تكتب كتاباً ولو كنت لا تتلوه، فالمقصود نفي التعلم بالقراءة والتعلم بالكتابة استقصاء في تحقيق وصف الأمية، فبانتفاء التلاوة والخط تحقق وصف الأمية، وإذا جواب وجزاء لشرط مقدر بـ(لو)، والتقدير: لو كنت تتلو قبله كتاباً أو تخطه لارتاب المبطلون"[(٦)].

(١) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص٤٥٦، وما بعدها، (باختصار).
(٢) راجع: لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص٤٥٧.
(٣) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص ١٠٨.

(٤) الطبري، أبو جعفر مُحَمَّد بن جرير، (١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م)، "جامع البيان في تأويل آي القرآن"، تحقيق: أحمد مُحَمَّد شاكر، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٥٠،٥١/٢٠، وينظر: الشنقيطي مُحَمَّد الأمين بن مُحَمَّد المختار بن عبد القادر الجكني (١٤١٥ هـ- ١٩٩٥م)، "أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن"، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت - لبنان، (بدون)، ١٣/٦، ١٤.
(٥) أخرجه الإمام البيهقي في سننه، باب: " لم يكن له أن يتعلم"، بلفظ: " لم يكن رسول الله ﷺ يقرأ ولا يكتب"، البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي، (١٣٤٤هـ)، "السنن الكبرى"، ط١، مجلس دائرة المعارف، حيدر آباد الهند، حديث رقم: (١٣٦٦٦) ٤٢/٧.
(٦) ينظر: الطاهر بن عاشور، مُحَمَّد الطاهر بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد "التحرير والتنوير، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد" (١٩٨٤م)، الدار التونسية للنشر - تونس/١٠/٢١، الشنقيطي مُحَمَّد الأمين بن مُحَمَّد المختار بن عبد القادر الجكني (١٤١٥ هـ- ١٩٩٥م)، "أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن"، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت - لبنان، (بدون)، ١٣/٦،

وهذا هو "الثابت من سيرته ﷺ أنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ... فكيف تأتَّى له ﷺ أن يطالع في الكتاب المقدس بعهديه أوالتلمود أو غيرهما ويحصِّل ما في تلك المصادر؟.

وهو الأميُّ الذى لا عهد له بالقراءة ولا الكتابة شأنه في هذا شأن الكثيرين من العرب في زمنه ﷺ وإذا افترضنا جدلاً أنه ﷺ قرأ وكتب، فلن يتسنى له أن يطالع في الكتاب المقدس ويحصِّل ما فيه، لأنه لم تكن هناك نسخ مترجمة إلى العربية، ومتوفرة ومتاحة لمن أراد الاطلاع عليها من العرب، وخاصة في مكة مهبط الوحى الأول، والتي لم يكن لليهودية أو النصرانية فيها إذ ذاك وجود يذكر"[(١)].

وأمَّا عن لقاء الرسولﷺ ببَحِيرَا الراهب، فقد ذكر لنا كُتَّاب السِّير تفاصيل ما حدث، ومن ذلك قول بحيرا لأبي طالب:" بالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه؛ فقال له سلني عما بدا لك، فجعل يسأله عن أشياء من حاله في نومه وهيئة وأموره فجعل رسوله الله ﷺ يخبره، فيوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته عنده ... قال ابن إسحاق: فلما فرغ أقبل على عمه أبى طالب، فقال له: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابنى، قال له بحيرا: ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً؛ قال فإنه بن أخي، قال فما فعل أبوه، قال مات وأمه حبلى به، قال صدقت فارجع بابن أخيك إلى بلده و احذر عليه يهود؛ فو الله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت لَيَبْغُنَّهُ شراً فإنه كائن لبن أخيك هذا شأن عظيم ، فأسرع به إلى بلاده "[(٢)].

وبعد فهل في هذه القصة ما يدل على أن النبي ﷺ أخذ شيئاً عن بحيرا الراهب، أم أن بحيرا هو الذى بشر بنبوة مُحَمَّد ﷺ بعد أن رأى تلك العلامات بأم رأسه يقول الدكتور رابح لطفى جمعه: "أمَّا بحيرا الراهب الذى زعم المستشرقون أن النبي ﷺ أخذ عنه وتلقى منه، فقد كان ناسكاً بمدينة بُصْرى بالشام، وكان نسطورياً من أتباع آريوس في التوحيد وكان ينكر ألوهية المسيح، وعقيدة التثليث، وقد زعـــــم بعضهم أنه كان معلماً لمحمد ﷺ ومصاحباً له بعد رسالته وهذا افتراءٌ بَيِّنٌ ... وقد ذكر رواة السيرة أن بحيرا بشر بالنبيﷺ لما رآه مع عمه، وقال وجهه وجه نبي وعينه عين نبي يبعث لهذه الأمة الأخيرة !!.. المهم أن بحيرا بعد بعثة النبي ﷺ كان قد مات منذ زمن طويل"[(٣)].

وليس فيما ورد في كتب السيرة ما يشير إلى أن النبي ﷺ أخذ عنه أيّ شيء وما عساه أن يأخذ في بضع ساعات، "ورغم أن تفصيل ما دار بين مُحَمَّد و بحيرا قد نقل إلينا، إلا انه لم ينقل لنا أن بحيرا علم النبي ﷺ شيئاً من الدين ولا من غيره كما لم ينقل إلينا أن مُحَمَّداً ﷺ كان يبحث عن معلومات يريد جمعها، أضف إلى ذلك أن سنه لم تكن تؤهله لذلك ولا تشجع أحداً على أن يلقنه شيئاً من المعلومات الدينية، وكذلك قصر مدة الرحلة وحرص أبى طالب على استصحاب مُحَمَّد معه أينما ذهب خوفاً عليه أمكننا أن نقطع بأن هذه الرحلة لم تكن مصدراً لعلم النبي ﷺ "[(٤)]... ولو سلمنا جدلاً أن النبي ﷺ قد تعلم علوم التوراة من بحيرا كما زعم لوبون هنا، فهل كان الاطلاع على الكتاب المقدس وغيره من مصادر القوم متاحاً لكل من أراد أن يطالع فيه آنذاك؟!!.

"ويذهب د. جراف إلى أن ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة العربية لم تظهر إلا في القرن التاسع أو العاشر الميلادي ويقول القس شيديالك: بأنه لم يتمكن من الرجوع بتاريخ أقدم ترجمات العهد الجديد إلى اللغة العربية إلى أبعد

١٤، السيوطي، جلال الدين، عبد الرحمن بن الكمال، (١٩٩٣م)، "الدر المنثور في التفسير بالمأثور"، دار الفكر - بيروت، ٤٧٠/٦.
(١) مُحَمَّد، إسماعيل علي (١٩٩٨م)، "الاستشراق بين الحقيقة والتضليل"، ط١، دار الكلمة، المنصورة - مصر، ص ١٩٣، ١٩٤.
(٢) ابن هشام، "السيرة النبوية"، ١٦١/١، ١٦٢.
(٣) جمعة، رابح لطفي،(د.ت)، "القرآن والمستشرقون"، ط١، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة، ص٤٧ ،٤٨، بتصرف.
(٤) قلعجي، مُحَمَّد رواس، (١٤١٧هـ/١٩٩٦م)، "دراسة تحليلية لشخصية الرسول"، دار النفائس – بيروت، ص٥٤،٥٣، بتصرف.

من القرن الحادي عشر الميلادي"[١]. هذا وما درست سيرة في العالم بتفاصيلها ودقائقها كسيرة نبينا مُحَمَّد ﷺ

لقد وصف المؤرخون وجهه الشريف، وما فيه من فم و أنف و أسنان ونحوه وذكروا مشيته وضحكه وتبسمه ...

وكيف كانت جلسته ووصفوا احتباءه، واتكاءه، واستلقاءه وتحريك يده حين كلامه، وكيف أكل الخبز أو البقل أو القثاء وكيف شرب ... فمن باب أولى أن يذكر المؤرخون ما هو أهم مما سبق لو وجدوا... فلو قرأ وكتب لذكروا كيف ومتى وأين كان ذلك ولذكروا معلمه قبل ذكر نعله وناقته وحماره!![٢]، أليس كذلك؟ بلى.

ويسوق الكونت هنري دي كاستري في معرض حديثه عن صدق الرسول ﷺ وصحة رسالته أنه ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب وبأنه كان يتلقى الوحى من السماء، فيقول: "ما كان يقرأ ولا يكتب بل كان كما وصف نفسه مراراً – نبياً أمياً – وهو وصف لم يعارضه فيه أحد من معاصريه ولاشك أنه يستحيل مع رجل في الشرق أن يتلقى العلم بحيث لا يعلمه الناس لأن حياة الشرقيين كلها ظاهرة للعيان"[٣].

وخلاصة الأمر أن النبي ﷺ كان أمياً لا يكتب، ولا يقرأ، ولم يثبت عنه ﷺ أنه جلس يوما ما إلى معلم من البشر كائناً من كان؛ لا بحيرا الراهب ولا غيره، ولقد زعم المشركون أن الذي يعلم مُحَمَّداً ﷺ القرآن الكريم، عبد رومي أعجمي، أو غيره ممن ذكروهم[٤]، فأنزل الله تعالى قوله: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ} (النحل: ١٠٣)، ، كما كان شأنه ﷺ، معروفاً معلوماً لأهل وكانت صفته واضحة "في التوراة والانجيل لأهل العلم وعلمه لهم وجعله لهم آية فقال لهم : ان آية نبوته أن يخرج حين يخرج لا يعلم كتابا ولا يخطه بيمينه"[٥].

ثانياً: شبهة مثارة حول سبب قسوة رسول الله ﷺ مع بني قريظة:

١ - عرض الشبهة: يقول صاحب كتاب حضارة العرب عن سلوك رسول الله ﷺ نحو يهود بني قريظة بشأن خيانتهم له وقت الحرب ونقضهم العهد الذي كان بينهم وبينه :" وهو لم يقسُ على أعدائه إلا مرةً واحدة حين أمر بأن تُضرب رقاب سبعمائة معتقل يهودي خانوه"[٦].

٢ - نقض الشبهة ودحضها: ويمكن تفنيد هذه الشبهة ودحضها؛ وذلك ببيان سبب موقف النبيﷺ من بني قريظة، الذين ارتكبوا جريمة الخيانة العظمى وقت الحرب، فلقد داهمت جيوش الأحزاب المدينة المنورة وكان المسلمون في موقف عصيب وصفه الله تعالى بقوله: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾[٧]، وبينما المسلمون على هذه الحال إذ يهود بنى قريظة ينقضون العهد مع النبي ﷺ ويتحالفون مع الأحزاب ضده وأصبح المسلمون بين كفتى الرحى، الأحزاب من الخارج واليهود من الداخل ولكن الله بفضله فرق تلك الجموع من الأحزاب وردهم خائبين، "وسار النبي بمن معه إلى يهود بنى قريظة فحاصرهم خمسةً وعشرين يوماً"[٨]، واستقر بهم الأمر أن نزل بنو قريظة على حكم سعد بن معاذ "قال نقتل مقاتليهم ونسبي ذريتهم قال فقال رسول الله ﷺ قضيت بحكم الله"[٩]، فكان حكمه فيهم جزاءً وفاقاً لما ارتكبوا من جريمة جريمة الخيانة العظمى في وقت الحرب؛ حيث إنهم تحالفوا مع عدو الأمة ونقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ.

(١) دراز، مُحَمَّد عبد الله (١٤٠٠هـ/١٩٨٠م) ، "مدخل إلى القرآن الكريم"، (بدون)، دار القلم – الكويت، ص١٣٩، ١٤٠ (بتصرف)، وينظر: نخبة من ذوى الاختصاص ومن اللاهوتيين (١٩٩٩م)، "قاموس الكتاب المقدس"، ط١٢، دار الثقافة – مصر، ص٧٧١.

(٢) أبو خليل، شوقي،(١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، "آراء يهدمها الإسلام"، دار الفكر، دمشق، ص١١٧.

(٣) أتين، دنيه، (د.ت)، "مُحَمَّد رسول الله"، ترجمة: عبد الحليم محمود، ط٣، دار المعارف، القاهرة، ص١٥.

(٤) الطبري، "جامع البيان في تأويل آي القرآن"، ٢٩٨/١٧، وما بعدها، وابن كثير، " تفسير القرآن الكريم"، ٦٠٣/٤، وما بعدها.

(٥) السيوطي، "الدر المنثور في التفسير بالمأثور"، ٤٧٠/٦، وينظر: الشنقيطي "أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن"، ١٣/٦.

(٦) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص١١١.

(٧) سورة الأحزاب الآيتان: ١٠ ، ١١.

(٨) ابن هشام، "السيرة النبوية"، ٢٠٥/٣ ، ٢٠٩ (بتصرف).

(٩) ابن هشام، "السيرة النبوية"، ٢٠٥/٣ ، ٢٠٩ (بتصرف).

ثالثاً: شبهة مثارة حول سبب غزوة خيبر:

١ - عرض الشبهة: زعم صاحب كتاب حضارة العرب بأن النبي ﷺ غزا يهود خيبر لمجرد الترويح عن أصحابه فقط، يقول:" وعظم شأن مُحَمَّد في عدة سنين، وأصبح لابد له من فتح مكة حتى يَعُمَّ نفوذه، ورأى أن يفاوض قبل امتشاق الحسام وصولاً لهذا الغرض، فجاء إلى البلد المقدس ومعه أربعمائة و ألف من أصحابه، ولم يُكتب له أن يدخلها... ورأى مُحَمَّد بعد ذلك الإخفاق أن يُرَوِّح عن أصحابه، فخف بهم إلى مدينة خيبر المحصنة المهمة الواقعة في شمال المدينة الغربي، والبعيدة منها مسرة خمسة أيام، والتي كانت تقطن بها قبائل يهودية، والتي كانت مقر تجارة اليهود، ففتحها عنوة"[١].

٢ - نقض هذه الشبهة ودحضها: كانت غزوة خيبر في المحرم سنة سبع من الهجرة على رأى جمهور العلماء[٢] ويمكن دحض هذه الشبهة ونقضها ببيان أسباب هذه الغزوة على النحو التالي:

أ ـ أن زعماء بنى النضير قد رحلوا إلى خيبر، بعد إجلائهم: وكان يهود خيبر يمثلون خطرًا محدقًا بالمسلمين لا سيما بعد إجلاء يهود بنى قينقاع وبنى النضير بسبب هجرة كبار وزعماء قينقاع والنضير إلى خيبر، فقد أصبحت خيبر مركزاً للدس والكيد والتآمر على الإسلام والمسلمين[٣]. وكان من الذين هاجروا إلى خيبر من زعماء اليهود:"سلام بن أبى الحقيق وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق، وحيي بن أخطب، فلما نزلوها دان لهم أهلها[٤].

ب ـ أن يهود خيبر حرضوا الأحزاب على غزوة الخندق: وفى هذا يقول ابن إسحاق:" إنه كان من حديث الخندق أن نفراً من اليهود ... وهم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ خرجوا حتى قدموا على قريش مكة فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وقالوا لهم إنا معكم حتى نستأصله، فقالت لهم قريش: يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف نحن ومُحَمَّد، أفديننا خير أم دينه؟.

قالوا بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه، فهم الذين أنزل الله تعالى فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً ﴾[٥].

قال فلمَّا قالوا ذلك لقريش، سرهم ونشطوا لما دعوهم إليه، من حرب رسول الله ﷺ فاجتمعوا واتعدوا له، ثم خرج أولئك النفر من يهود إلى غطفان من قيس عيلان فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه وأن قريشاً قد تابعوهم على ذلك، فاجتمعوا معهم فيه"[٦].

جـ أن حيي بن أخطب حرض بني قريظة على نقض العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ يوم الخندق ففعلوا[٧].

د ـ أن بعض هؤلاء شارك مع الأحزاب يوم الخندق: وهذا ما أكده أحد المستشرقين اليهود المتحاملين على الإسلام في الجملة غير أنه أنصف الإسلام هذه المرة ألا وهو: الدكتور: إسرائيل ولفنسون المستشرق اليهودي فقد

(١) لوبون، غوستاف،(٢٠١٣م)، "حضارة العرب"، ص١١١.
(٢) ينظر: ابن هشام، "السيرة النبوية"، ٣٠٢/٣، والحلبي، علي بن برهان الدين(د.ت)، "السيرة الحلبية"، ط١، دار المعرفة، بيروت، ٧٢٦/٢، وأحمد، محمدي رزق الله (١٤٢٤هـ)، "السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية"، ط٢، دار إمام الدعوة، السعودية،٥١,٥٢/٢.
(٣) راجع: خليل، عماد الدين،(١٤٢٢هـ)، "دراسة في السيرة"، ط١٥، القاهرة، القاهرة، ص ٢٨٨، ٢٨٩.
(٤) ينظر: ابن هشام، "السيرة النبوية"، ١٥٩/٣، والحلبي، علي بن برهان الدين، "السيرة الحلبية"، ٥٥٦/٢، وأحمد، محمدي رزق الله، "السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية"، ٥٠/٢.
(٥) سورة النساء، الآية: ٥١.
(٦) ابن هشام، السيرة النبوية، ٣ /١٨٧، ١٨٨، ١٦٨/٢ ، ويراجع: والحلبي، علي بن برهان الدين، "السيرة الحلبية"، ٦٢٨/٢ : ٦٣٠، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ٥٤٧/١ ، ٥٤٨ ، والسيوطي، جلال الدين، "أسباب النزول للسيوطي"، ص ١٢٢ ، وابن كثير، "تفسير القرآن العظيم"، ٥١٣/١، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٢٢١/٣.
(٧) ينظر: السيرة النبوية، لابن هشام ١٩١,١٩٢/٣، والحلبي، علي بن برهان الدين، "السيرة الحلبية"، ٦٣٧,٦٣٨/٢، و وأحمد، محمدي رزق الله، "السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية"، ٥٥٥/١.

ذكر - في معرض حديثه عن أسباب غزوة خيبر - اشتراك :"بعض زعماء خيبر والنضير في يوم الخندق"[(١)].

وبعد، فهذه أهم أسباب غزوة خيبر كما وردت في مصادرنا المعتمدة من صحيح كتب السيرة النبوية، وليس هذا فحسب، بل كما شهد به مستشرق صهيوني متعصب ليهوديته - في الجملة - ولكنه مع ذلك، يذكر الأسباب الحقيقية وراء غزو النبي ﷺ ليهود خيبر.

- **الخاتمة:**

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن مُحَمَّداً عبده ورسوله صلاةً وسلاماً دائمين متلازمين إلى يوم الدين؛ يوم يقوم النَّاس لرب العالمين...وبعد:

ففي ختام هذا البحث الذي بعنوان: صورة الحضارة الإسلامية (من خلال كتاب: "حضارة العرب" لغوستاف لوبون)، يجدر بنا أن نسجل هنا بعض النتائج والتوصيات، على النحو التالي:

أولاً: النتائج:

١ ـ اتبع المؤلف المنهج العلمي في كتاب" حضارة العرب" غالباً.

٢ ـ اعتمد المؤلف على المصادر والمراجع الإسلامية الأصيلة في الجملة.

٣ ـ فند المؤلف شبهات مثارة حول الإسلام وقام بنقضها، وبيان زيفها.

٤ ـ أنصف المؤلف الإسلام وحضارته، وبين فضل الحضارة الإسلامية على الحضارة الغربية في شتى مناحي الحياة وفي مختلف العلوم والفنون.

٥ ـ شهد المؤلف بأن الإسلام لا النصرانية هو الذي كرم المرأة وأنصفها وجعل لها مكانية رفيعة ومنزلة سامية.

٦ ـ أشاد المؤلف بحسن معاملة الإسلام للرقيق والأسرى.

٧ ـ قرر المؤلف أن الإسلام لم ينتشر بحد السيف، بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب.

٨ ـ قرر المؤلف أن الإسلام دين العلم والحضارة والمدنية، وأن مناهج الغربيين كانت تعتمد على كتابات المسلمين زهاء ستة قرون تقريباً في شتى العلوم ومختلف الميادين والمجالات.

٩ ـ هناك نفر من المستشرقين أنصفوا الإسلام وحضارته، فيجب أن ينالوا المكانة والثناء اللائق بهم.

١٠ ـ بعض المستشرقين دسوا أفكارهم وأساءوا للإسلام وحضارته، فيجب أن نتعرف على شبهاتهم ونقوم بدراستها ونقضها.

١١ ـ غوستاف لوبون ممن أنصف الإسلام وحضارته في كثير من المواطن إلا أنه أثار بعض الشبهات التي قام البحث بتفنيدها والرد عليها ونقضها بأدلة وحجج وبراهين.

١٢ ـ رحمة المسلمين وتسامحهم ورعايتهم للأخلاق والقيم كانت سبب انتشار الإسلام وإقبال الشعوب على اعتناقه والدخول فيه، ومن الأمثلة على ذلك أهل مصر وموقفهم إبان الفتح الإسلامي.

ثانياً: التوصيات:

١ ـ تكوين مجالس علمية متخصصة وفرق عمل مهمتها العكوف على مراجعة الأعمال الفكرية المتعلقة بالإسلام وأصوله وتاريخه وحضارته للكتاب الغربيين.

٢ ـ تسليط الضوء على الأعمال الفكرية للغربيين المنصفين للإسلام في الجملة، من أمثال المستشرق غوستاف لوبون.

٣ ـ تتبع شبهات الكتاب الغربيين الحاقدين على الإسلام وبيان زيفها ونقضها.

٤ ـ بيان محاسن الإسلام وترجمة هذه الأعمال الفكرية إلى جميع اللغات الحية، ونشرها في شتى أرجاء المعمورة، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله سبحانه وتعالى، والسلطان في الأرض لشرعه عز وجل.

٥ ـ دراسة المستشرقين للحضارة الإسلامية والعربية يحفزنا نحن المسلمين والعرب بأن نقرأ تراثنا ونحافظ عليه ونطوره.

٦ ـ إرسال العلماء والدعاة للأقليات المسلمة في أوربا وأمريكا وغيرها من بلدان العالم لتحصين هويتهم الإسلامية والحفاظ عليها.

٧ ـ توثيق صلة أبناء الإسلام بعلماء الأمة الأثبات العمد الثقات بهدف إكسابهم مناعة فكرية وإعدادهم الإعداد الأمثل ليكونوا أدوات بناء في المستقبل، وليسوا ـ عياذاً بالله من ذلك ـ معاول هدم.

(١) ولفنسون، إسرائيل (٢٠٠٦م)، "تاريخ اليهود في بلاد العرب"، ط١، دار النافذة، مصر، ص ١٨٧، ويراجع: ص١٦٧، ١٩٠، ١٨٥.

٨ ـ نشر الفكر الإسلامي الأصيل، القائم على الوسطية والاعتدال بيان سماحة الإسلام؛ صيانةً للمجتمعات الإسلامية عن الغلو في الدِّين والتطرف والإرهاب.

٩ ـ إنشاء مراكز بحثية تقوم بفحص كل ما يقال عن الإسلام؛ لمواجهة تيارات الإلحاد والميوعة والانحلال المعاصر.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المراجع

ـ القرآن الكريم – سبحان من أنزله.-

ابن إسحاق مُحَمَّد بن يسار المطلبي بالولاء، المدني (١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م)، " السيرة النبوية، سيرة ابن إسحاق"، تحقيق: سهيل زكار، ط١، دار الفكر - بيروت.

ابن عاشور، مُحَمَّد الطاهر،(١٩٨٤م)، "التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»"، (د.ط)، الدار التونسية للنشر – تونس.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر،(١٤٢٠هـ/١٩٩٩م)، "تفسير القرآن العظيم"، تحقيق: سامي بن مُحَمَّد سلامة، ط٢، دار طيبة للنشر والتوزيع، القاهرة.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل،(١٤١١هـ/١٩٩١م)، "تفسير القرآن العظيم"، ط١، دار الغد العربي – مصر.

ابن منظور، مُحَمَّد بن مكرم، (د.ت)، "لسان العرب" ، ط١، دار المعارف بمصر.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (١٣٩٥هـ / ١٩٧٦م)، "السيرة النبوية"، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان، بدون

ابن هشام، أبو مُحَمَّد عبد الملك،(١٤١٩هـ /١٩٩٨م)، "السيرة النبوية"، تحقيق: جمال ثابت وآخرين،ط٢، دار الحديث – القاهرة .

.ابن نبي، مالك بن الحاج عمر بن الخضر (١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م)، "إنتاجُ المستشرقينْ وأثره في الفِكر الإسلاميّ الحَدِيث"، ط١، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

أبو خليل، شوقي،(١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، "آراء يهدمها الإسلام"، ط٥، دار الفكر – دمشق.

أحمد، محمدي رزق الله، (١٤٢٤هـ)، "السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية"، ط ٢ـ، دار إمام الدعوة ـ السعودية.

الأميري، عمر بهاء الدين،(١٩٨٣م)، "الإسلام وأزمة الحضارة الإنسانية المعاصرة في ضوء الفقه الحضاري"، ط١، مؤسسة الشرق للنشر والترجمة ـ قطر.

بدوى، عبد الرحمن، (١٩٩٧م)، "مناهج البحث العلمي"، وكالة المطبوعات بالكويت، ص ١٨٣.

بوحوش عمار، (١٤١٠ هـ ـ ١٩٨٩م)، "مناهج البحث العلمي أسس وأساليب ـ ط١، مكتبة المنار بالزرقاء - الأردن.

البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي، (١٣٤٤هـ)، "السنن الكبرى"، ط١، مجلس دائرة المعارف، حيدر آباد الهند.

بوحوش عمار، (١٤١٠ هـ ـ ١٩٨٩م)، "مناهج البحث العلمي أسس وأساليب ـ ط١، مكتبة المنار بالزرقاء - الأردن.

جمعة، رابح لطفي،(د.ت)، "القرآن والمستشرقون"، ط١، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة.

حسين، مُحَمَّد مُحَمَّد،(د.ت)،"الإسلام والحضارة الغربية"، ط١، المكتب الإسلامي، بيروت.

الحلبي، علي بن برهان الدين، (د.ت)، "السيرة الحلبية (إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون)"، ط١، دار المعرفة – بيروت، لبنان.

خليل، عماد الدين، (١٤٢٢هـ/٢٠٠١م)، "دراسة في السيرة"، ط١٥، مؤسسة الرسالة، بيروت .

دراز، مُحَمَّد عبد الله،(١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، "مدخل إلى القرآن الكريم"، ط١، دار القلم – الكويت.

.دنيبه، أتين، (د.ت)، "مُحَمَّد رسول الله"، ترجمة: د. عبد الحليم محمود، ط٣، دار المعارف بمصر.

.زقزوق، محمود حمدي، (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، "الإسلام في تصورات الغرب"، ط١، دار وهبة – مصر.

زقزوق، محمود حمدي،(١٤٠٤هـ)، "الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري"، ط١، كتاب الأمة (٥)، المحاكم الشرعية والشئون الدينية - قطر .

السايح، أحمد عبد الرحيم، "ذو الحجة١٣٩٧هـ/ نوفمبر تشرين ثاني١٩٧٧م)،"الحضارة الإسلامية"، طبع ونشر الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة، السنة العاشرة، العدد الثالث .

سعيد، همام عبد الرحيم، وآخرون،(٢٠٠٥م)، "الوجيز في الثقافة الإسلامية"، ط٢، دار الفكر ـ بيروت ـ لبنان.

.السيوطي، جلال الدين، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م) "أسباب النزول للسيوطي"، دراسة وتحقيق: حامد أحمد الطاهر، ط١، دار الفجر للتراث، القاهرة.

السيوطي، جلال الدين، عبد الرحمن بن الكمال، (١٩٩٣م)، "الدر المنثور في التفسير بالمأثور"، دار الفكر - بيروت.

الشرقاوي، عفت،(د.ت)، "فلسفة الحضارة"، ط١، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت.

الشنقيطي مُحَمَّد الأمين بن مُحَمَّد المختار بن عبد القادر الجكني (١٤١٥ هـ- ١٩٩٥م)، "أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن"، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت - لبنان، (بدون.(

.الطاهر بن عاشور، مُحَمَّد الطاهر بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد "التحرير والتنوير، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد" (١٩٨٤م)، الدار التونسية للنشر - تونس .

الطبري، أبو جعفر، مُحَمَّد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، (١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م)، "جامع البيان في تأويل آي القرآن"، تحقيق: أحمد مُحَمَّد شاكر، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

القرطبي، أبو عبد الله، (١٩٩٢م)، "الجامع لأحكام القرآن"، ط١، دار الغد العربي – مصر.

قلعجي، مُحَمَّد رواس، (١٤١٧هـ /١٩٩٦م)، "دراسة تحليلية لشخصية الرسـول"() ، ط٢، دار النفائس – بيروت – لبنان.

لوبون، جوستاف، (د.ت)، "روح الجماعة"، ترجمة: عادل زعيتر، ط١، دار المعرفة ـ القاهرة.

غوستاف لوبون، (٢٠١٧م)، "حضارة العرب"، ترجمة عادل زعيتر، ط٦، دار العالم العربي، القاهرة.

لوبون، غوستاف، (٢٠٢٣م)، "حضارة العرب"، ترجمة: عادل زعيتر ـ مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة.

مُحَمَّد، إسماعيل علي، (١٤١٩هـ /١٩٩٨م)،"الاستشراق بين الحقيقة والتضليل، ط١، دار الكلمة - المنصورة – مصر .

مصطفى، إبراهيم، وآخرون،(د.ت)، "المعجم الوسيط"، ط١، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ـ دار الدعوة بالإسكندرية.

موسوعة ويكيبديا الحرة على الشبكة الدولية للمعلومات (الإنترنت (https://ar.wikipedia.org/wiki

نخبة من ذوى الاختصاص ومن اللاهـوتيين،(١٩٩٩م)،"قاموس الكتاب المقدس"،ط١٢، دار الثقافة، مصر .

الواعي، توفيق، (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)، "الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية"، ط١، دار الوفاء بالمنصورة ـ مصر.

ولفنسون، إسرائيل،(٢٠٠٦م)، "تاريخ اليهود في بلاد العرب"، ط١، دار النافذة، القاهرة .

وول، ديورانت،(د.ت)، "نشأة الحضارة"، ترجمة: د. زكي نجيب محمود،ط١، طبعة لجنة التأليف والنشر بالقاهرة.

Islamic civilization image via the book of Arab Civilization by The orientalist, Gustave Le Bon

Dr. Abdel-Maaboud Ismail Ibrahim

Assistant prof., Jazan University

Shareah Section, The faculty of Shareahand Law.

Abstract

This research aims to show the image of our Islamic civilization via the book of Arab civilization by Dr. Gustave Le Bon ,the French orientalist, historian and sociologist doctor, who faired the Muslims and their civilization .He praised Muslims mostly praise in most of his books.

Research Topic:

This research included: Preface, Introduction, Five factors and Conclusion, they are as follows:

In Preface the researcher talked about the importance of the topic, the reason for its choice, research method and research plan.

In the Introduction, the researcher addressed the following:

First: The definition of Islamic civilization.

Second: The definition of Orientalism.

Third: The definition of the author and the book.

The first factor: the researcher talks about the foundations and characteristics of Islamic civilization.

The second factor: The researcher talks about the impact of Islamic civilization on Western civilization

The third factor: It was about Gustave Le Bon's efforts to defend Islam

The fourth factor: Refuting suspicions raised about Islam in the book of Arab Civilization.

Conclusion: It includes the most important findings and recommendations.

Key words: : Islam - Messenger of Allah Muhammad peace be upon him - Arab – Civilization – Orientalism - Orientalists - Gustave Le Bon .